

العولمة

والآن: ما هي العولمة..؟

وهل من فرق بين أميتها والأمية الاشتراكية؟

أ- العولمة هي ابنة (العالمية)

والعالمية هي ابنة (العلمانية)

العلمانية الجدة كانت الصرخة التي انطلقت من مئات الحناجر مطالبة بالتحرر من الإقطاع وسلطة الكنيسة. ثم تحولت من الضجيج الضوضائي إلى حركة سياسية أخذت على عاتقها الأسس القانونية التي ينبغي أن يبنى عليها النظام، الذي ينبغي أن يحقق مصالح الأكثرية، ويسقط إلى الحضيض قداسة الفروق التي ورثتها بعض الفئات، دون أي جهد مقابل لقد حملت الفلول الصليبية إلى بلدانها أطناناً من حضارة العرب وطرحتها في المجتمعات الأوربية التي كان يلفها الظلم والظلام.

أنواع العلوم والفنون والفلسفة والمنطق وأصول الحكم دخلت إلى بلدان أوربا فطردت تلك العبوديات التي كانت تعتقل عقل الإنسان وكان ذلك جميعه خمائر الفكر الذي قام عليه بناء الثورة الفرنسية. التي سعت في سماء القرون القادمة مثلما تسطع الشمس، ولكن الجسد الاجتماعي يشبه في تطوره الجسد الإنساني، إذ يضيق عليه ثوب الحضارة، فيطمح إلى امتلاك ثوب على مقاسه الجديد.

إن إرخاء العنان للحرية، حرية التصرفات الذي جاء رد فعل على عملية (كتم النفس) التي ظل يعاني منها، الإنسان قرونا عديدة.

الحرية المفتوحة المطلقة ملأت المجتمع حتى الاختناق بقيم وثوابت جديدة لقد أفرزت المجتمع إلى فئتين:

١- فئة الأغنياء الأذكياء

٢- فئة الفقراء الأغبياء

حيث استفادت الأولى من ذكائها فتمكنت من استغلال الثانية على فائض قيمة جهودها.

ومثلما فرضت حاجة المجتمع إلى خلع الإقطاعية وارتداء العلمانية. فرضت حاجته الجديدة في بعض البلدان تعمق فيها الهامش بين الفقراء والأغنياء إلى خلع العلمانية والنداء بالعالمية.

فلم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان الإنسان على موعد مع فكر جديد فكر – طرح نفسه محراثاً اجتماعياً – مدمراً للنظم والثوابت مسلطاً أنواره على أعمق حاجات الإنسان ليملأها بالهواء والضياء.

لقد وضع ماركس وإنجلز في بيانهما بعام ١٨٤٨، فلسفة اجتماعية تختلف اختلافاً نوعياً عما هو سائد، فلسفة هي محراث حقيقي أعداه لكي يقلب تربة المجتمع بنظمها ومثلها، وقوانينها، وثوابتها رأساً على عقب ويضع البديل الذي يعبّر عن إنسانية الأكثرية البشرية المسحوقة. قالا:

"نعم كان النظام علمانياً ولكن الفوارق بين الأغنياء والفقراء تزداد حدة واتساعاً وتنوعاً يوماً عن يوم"

ففي قاموس البؤس الاجتماعي، لا تجد الرقبة المصفوعة فرقاً بين أن تنزل عليها الصفعة من الإقطاعي أم من الرأسمالي فقط تحس بشيء واحد هو قوة الصفعة التي تسقط عليها.

وتابعوا:

"إن معاناات الفقراء واحدة في جميع أنحاء العالم، وسعادة الأغنياء واحدة في جميع أنحاء العالم، ومثلما تتماثل أسباب الفقر في كل مكان، تتماثل أسباب الغنى في كل مكان. ومثلما يرث الغني أبناء الأغنياء، يرث أبناء الفقراء الفقراء"

ومنذ زمن بعيد تحكمت بالفقر والغنى أعراف وتقاليد. حتى لقد غدا مألوفاً اجتماعياً ألا يرفع الفقير رأسه إلا ليرى عقب الغني هابطة عليه من الأعلى.

فالعلمانية التي ألغت من قناعات الناس نظم الإقطاع والغيبيات تركتهم في مهب الغرائز البشرية التي لم تلبث أن امتلكت زمام الاقتصاد، فانحت أمامها النباتات ذات البنية الضعيفة حتى إذا مر وقت يسير عادت التشكيلة الاجتماعية من جديد مع فارق في الأسماء فقط.

حيث حلَّ الغني محل الإقطاعي، والأجير محل الفقير، ولم تقف الأمور هنا، بل اخترق المتحكمون حرم النصوص الدينية فأولوها على غير مراميها، مخدرين بها بحر التعساء.

لقد طرحوا بين المؤمنين مقالة المسيح: ((إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله))

وقالوا حظوظ الآخرة على عكس حظوظ الدنيا، دون التفات إلى النفخة التصوفية السامية في أقوال السيد التي رمت من وراء هذا القول، إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يعتمد على غير الله للوصول إلى ملكوت الله.

هـذا الـنداء ذو النبـرة الاشـتراكية العالية:(يا عمال العالم اتحدوا).

تـوجه بـه ماركس وإنجلز إلى جميع العمـال فـي العـالم، مهيبين بهم أن يتحدوا ليـصنعوا التاريخ مثلما يصنعون أسباب الحياة من الإبرة والمسمار حتى أضخم المكائن.

ومـع أنهـا أمية فتنت ملايين الناس. وأقـيمت علـيها (نُظـم سياسـية) و(فلسفة اجتماعـية) وسـار فـي ظلها. نصف سكان الأرض تقريباً.

فقد:

- ظلّت ضمن حدود الوطن، لم تتجاوزه إلى غيره من الأوطان.
- وفـي الـوطن الخـصائص القومـية واللغوية والعقائدية خطوطاً حمراء لا يجوز المساس بها.
- وقـصرت سـيادتها وقـيادتها علـى الاقتصاد والسياسة.

تاركـة للطبـيعة الـتعددية أن تتابع مسيرتها بكامل الهدوء، لقد اكتفت بأن وضعت الجمـيع اقتـصادياً. داخل الجدران الاشتراكية وفـيما عـدا ما تحتاجه الاشتراكية من رقابة وقوننة وتنظيم – لم تتدخل – الاشتراكية فيه، فتركته وشأنه.

أمّا العولمة:

فهـي المقابـل الجديد، الكالح الشديد للاشـتراكية. أخـذت عنها تحرُر المجتمع من الغيبـيات، وحيـنما انتهت من غسل الأدمغة، طرحت إلى التداول نظرية (العالم بلا حدود ولا فواصل).

العـالم الذي يضم أميين، تخففوا من الهويات، وقطعوا صلاتهم بالتاريخ والمحددات الوطنـية والجغرافية، وقبلوا أن يكونوا أرقاماً صماءً في هذا العالم.

قال العولميون:

ذلك قدرٌ لا مفرٌ منه تنحدر إليه جميع الأمـم، ففـي فـرن العـولمة ينصهر الجميع فيخـرجون من بحر النّار لدائن مطواعاً للطيَّ. واللّي والصياغة من جديد. الأعمى هو الذي لا يرى ما آل إليه الكون.

- المـسافات التـي كانت تفصل بين الأمـم طـوتها أجـنحة الطـيارات ومحركات السيارات والقاطرات والبوارج.
- مخفـيات الأمم، حتى المخبوء في السراديب والإنفاق لم تعد عصيّة على الأقمار الاصطناعية.
- صـار العـالم في كل مكان يسمع الصوت ويرى صاحبه في لحظة الكلام.

مما يذكرنا بذلك الذي عنده علم من الكتاب فقـال لسليمان متعهداً أن يجلب عرش بلقيس مـن الـيمن بالسرعة التي ذكرها:(أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك... النمل ٢٧/٤٠).

- العـالم جمـيعه يستـضيء بـنور الشمس نهاراً وبالقمر والنجوم ليلاً.
- العـالم جمـيعه تمر عليه الفصول الأربعـة فتـصنع الحياة في الإنسان والحيوان والنبات.

وبـتقدم العلـوم، تبين أن هذا العالم الذي نعيش فيه ليس أكثر من قريةٍ صغيرة في هـذا الكـون الكبيـر. وصارت الاتصالات بين القـارات، بـسهولة الاتصالات بين البيوت في الحي الواحد.

ومهما أوصدت الأمم أبوابها، فإن مخدلة العولمة تتحرك ببطء الكبرياء. تبتر من طريقها النواتئ. وتردم الحفر وتسوّي العالم مهاداً عولمياً لا عوج فيه.

غير أنه لم يمض غير اليسير من الزمن. حتى تبين للناس، أن العولمة ظاهرها حضاري وباطنها استعماري. ففي البلدان التي سارت بها قامت أميتان، (أمية الأغنياء) و(أمية الفقراء). وما ذلك إلا لأن جوّ الحرية المطلقة مكّن رأس المال من أن يتحرك في جميع الاتجاهات. فبرزت حيتان المال من صيارفة وتجار وشركات عابرة للقارات.

ومما عمق الهامش الاقتصادي والثقافي بين الأغنياء والفقراء. دخول الآلة، هذا المارد الأصمّ.

الذي لا يتعب ولا يعرق ولا يلهث، ولا يمرض، ولا يطالب برفع الأجور، والتعويض العائلي، والإجازات والساعات الإضافية.

ويمتاز فوق ذلك بالنمطية و الإتقان. والسرعة القصوى والطاقة التي تزيد في الآلة الواحدة على ما لدى عشرات العمال.

هذا المارد تربّع في المعامل وطرد منها عشرات الملايين الذين طفقوا يعرضون عضلاتهم بأبخس الأثمان وأدنى درجات الكرامة.

إن مؤتمر أقطاب العولمة في (دروبان) عارضته ثلاثة آلاف منظمة ونقابة دولية. جميعها أرسلت مندوبيها الذين ظلوا في حالة تظاهر طيلة أيام المؤتمر ولكن ذلك. لم يؤثر كثيراً على التيار الذي ظلّ هدَّاراً لا يلوي على شيء.

وحينما سقطت التجربة الاشتراكية. انتفخت أوداجه من الغرور معتبراً أنه بذلك السقوط اكتسب برهاناً جديداً على النظام الرأسمالي هو الوحيد الذي ينسجم مع طبائع الإنسان في كل مكان حتى الطبائع التي أيبسها النظام الاشتراكي وأن الحتمية التي امتلأ الكون بضجيجها الاشتراكي ليست - في الحقيقة - سوى هوية النظام الرأسمال ورفيقته حتى آخر مسيرة الإنسان على هذا الكوكب. ففي النظام الرأسمالي وجدت الحتمية لتبقى ولكن تبين للدارسين أن لا حتمية ثابتة على الزمن. فالتاريخ الذي هو من صنع الإنسان يسير على الدوام. وهو إن توقف في بعض المحطّات، فلكي يجدِّد الإنسان المستجدات آليات الحياة بما يتلاءم مع المستجدات.

لقد كان الأنبياء أول من أدرك هذه الحقيقة. فتعاملوا مع السابق باحترام وبشّروا بما هو قادم.

- قال المسيح عليه السلام: ((ما جئت لأنقض جئت لأكمل)).
- وقال محمد ﷺ: ((إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق)).

فالأخلاق الفاضلة وإن كانت من أوامر الله، بُلّغ منها بمقدار تطور الإنسان وإمكانية استيعابه. وسوف يتلوها. ما يغطي حاجات الإنسان التطورية في كل زمن. ولكن التطور لا يأتي انفجاراً من العدم، بل ينمو الجديد جنيناً في رحم القديم، حتى إذا ازدادت تناقضات القديم وقامت الحوامل الاجتماعية التي تستطيع أن تحمي الجديد. برز هذا حالاً محلّ معاكسة الاجتماعي - سالكاً ذات الطريق، حيث يتكون

في رحمه نظام جديد ينمو ويسرع الخطا بمقدار ما تتكاثر وتتراكم أخطاء القديم.

لقد أوضح الفلاسفة الروس (بليخانوف) و (كامينيف) و (زينوفييف) إلى لينين هذه الحقيقة الاجتماعية.

وقالوا: لقد ولد النظام الرأسمالي من أخطاء وتناقضات النظام الإقطاعي. وكانت الولادة طبيعية بسبب تفاقم أخطاء النظام السابق وعجزه عن حل المشاكل الاجتماعية.

وتابعوا: إذا اخترت سياسة حرق المراحل - فسوف تحظى بمخلوق اشتراكي غير مكمّل النمو - وإذ ذاك سوف نضطر إلى وضعه في غرفة الإنعاش.

ولكن لينين الذي كان قد ضاق ذرعاً بتخلف المجتمع الروسي اقتنع بضرورة الانتقال بالإنسان السوفييتي، من العالم الرأسمالي، معتقداً أن بلسم الاشتراكية سوف يشفي جراح الأمة مهما كانت عميقة. فأجرى عملية قيصرية استخرج بها الجنين الاشتراكي قبل اكتماله - ووضعه على الفور - في غرفة الإنعاش، التي لم تكن غير الديكتاتورية وإلغاء الآخر من عوالم الفكر. والسياسة والاقتصاد.

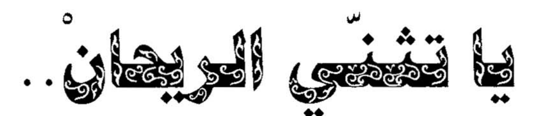
ومع أنه تنبّه فيما بعد إلى ضرورة (روسنة الماركسية) كما قال، وأعلن أنها أحجار تُبنى بها المجتمعات على ضوء ظروفها الموضوعية، فقد وافاه الأجل قبل أن يضع هذا الراي موضع التطبيق. تاركاً كل شيء إلى خلفائه الذي أسكرتهم السلطة. ففرضوها دون رحمة. وأقصوا من الحياة كل فكر آخر. وأقاموا حول البلاد ستارا منع عنها الضياء والهواء.

لذلك، وما أدرك السبعين، حتى كانت التجربة السوفيتية ثمرة ناضجة جاهزة للسقوط. وبدأ النظام فيما كانت تتساقط عنه دول وارسو، كأنه جسد افترسه داء الجزام فطفقت جوارحه تتساقط واحدة واحدة خلافاً لنظريتي (فوكوياما) و (هنتغتون) وكتابيهما: أن التاريخ لن يجمد على نظام اجتماعي (اقتصادي أو فلسفي) بل لن يكون أي نظام سوى محطة من المحطات، يقف فيها الإنسان زمناً يطول أو يقصر بمقدار جمود الظروف وحركتها لكي يتابع سيره إلى ما شاء الله.

إن النظام العولمي ورث عن أبيه أهم تناقضاته، ألا وهي الفروق الطبقية التي تتزايد عمقاً واتساعاً مع الأيام.

فسوف لن يصبر العالم طويلاً وهو يرى ٣٨٥ مليارديراً يملكون ثلاثة أرباع ثروة الكون. وتلك الأكثرية التي يتضخم عددها باستمرار منزوية تحت عتبة الفقر، تبيت لياليها في المجارير وتقضي أيامها بحثاً بين أكوام القمامة عما تسدُّ به الرمق.

تلك الكتلة التعيسة التي يزداد حجمها كل يوم هي بارود الثورة ضد نظام العولمة، الذي تكون أطماعه قد أوصلته إلى درجة الترنُّح وإذ ذاك يتأكد للجميع أن الاشتراكية لم تسقط، بل سقطت التجربة الخاطئة. وأن الإنسان يبقى باحثاً على الدوام عن النظام الذي يحقق له أكبر مقدار من العدالة.


يا تثنّي الريحانْ..

شعر: مدحة عكاش

قــيلَ عنِّــي: أهــوى الجمَــالَ واشــدو

لمغانــي الجمــالِ مِــنْ كــلِّ فَــنِّ

وعُيونــي وَقْــفٌ علــى كــلِّ حُــسْنٍ

لا تَــسَلْ عــن مفــاتنِ الحُــسْنِ عينــي

كــم تغنَّــيتُ لابتــسامِ العَــذارى

والغوانــي، وكــلِّ ظَبْــيٍ أغَــنّ

وتغنَّــيْتُ للــورد وللَّــيلِ

وغنَّــيتُ كــلَّ ســهلٍ وحَــزْنِ

والعــيونُ التــي وَهَــبْتُ لهــا روحــي

زمانــاً وعلَّمتنْــي التغنِّــي

*　*　*

تلــكَ أشــياءُ عَهْــدُها قــد تقــضَّى

وطــواها جمــالُ وجهِــك عنِّــي







أنـــا، مـــذ داعــبَتْ جفــونُكِ آمالـــي

حـــرامٌ إنْ ضـــمَّ غَيْـــرَك جفنـــي

أنـــتِ، يـــا مَـــنْ أيقظـــت أحلـــى أمانـــي

فـــتاهت بـــينَ الرِّضـــا والتَّجنِّـــي

وتـــركت الفـــؤادَ نـــشوانَ هـــيمان

يُغنِّـــيكِ ألـــفَ لحـــنٍ، ولحـــنِ

أنـــتِ خمـــري فـــي عـــصفةِ الـــيأسِ في القلبِ

وكأســـي – إذا أُديـــرَت – وَدَنِّـــي

أنـــتِ إنْ لُحْـــتِ فـــي مَطـــافِ خيالـــي

غِـــبْتُ عـــن خاطـــرِ الـــزمانِ، وعنِّـــي

أنـــتِ، مـــا أنـــتِ غيـــرَ نفحـــة ألطـــافٍ

تهـــادَتْ، سَـــكْرى فـــراديسِ عَـــدْنْ

لـــكِ قلبـــي، وهـــلْ يُقَـــدِّمُ للحـــسناء

أحلـــى مـــن قلـــبِ صـــبٍّ يُغَنِّـــي

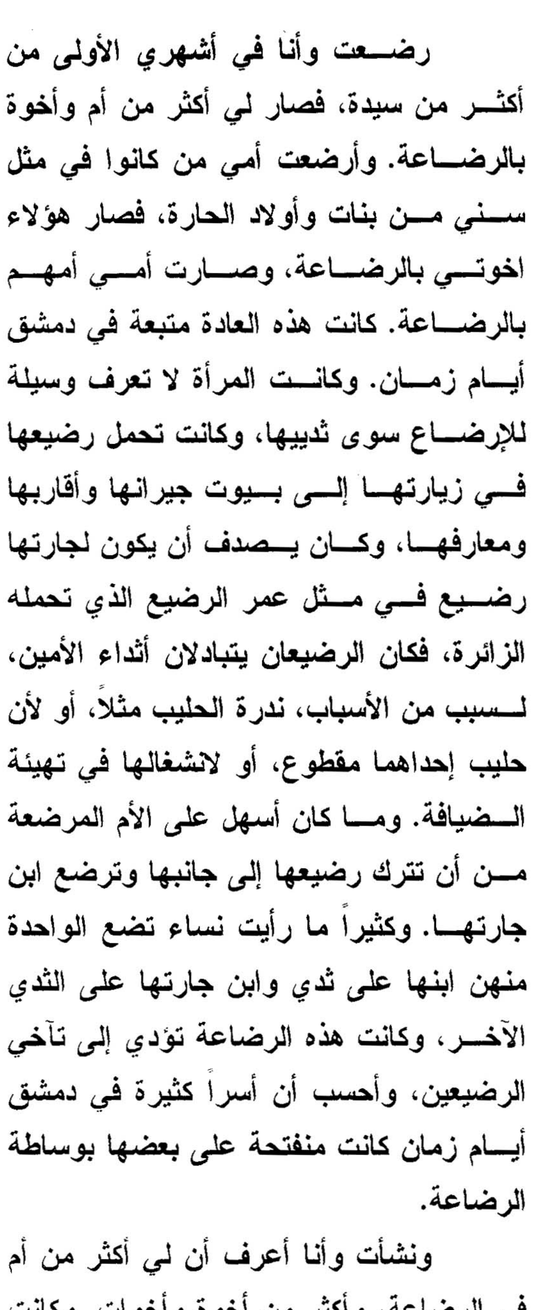
يـــا تَثَنِّـــي الـــرَّيْحانِ!! بعـــتُكِ روحـــي

طـــابَ مـــنكِ الهـــوى وطـــابَ التثنِّـــي

لـــكِ، للحُـــسْنِ، للجفـــونِ الكـــسالى

مـــا سَـــيَروي الـــزمانُ عـــنكِ وعنِّـــي



رضعت وأنا في أشهري الأولى من أكثر من سيدة، فصار لي أكثر من أم وأخوة بالرضاعة. وأرضعت أمي من كانوا في مثل سني من بنات وأولاد الحارة، فصار هؤلاء اخوتي بالرضاعة، وصارت أمي أمهم بالرضاعة. كانت هذه العادة متبعة في دمشق أيام زمان. وكانت المرأة لا تعرف وسيلة للإرضاع سوى ثدييها، وكانت تحمل رضيعها في زيارتها إلى بيوت جيرانها وأقاربها ومعارفها، وكان يصدف أن يكون لجارتها رضيع في مثل عمر الرضيع الذي تحمله الزائرة، فكان الرضيعان يتبادلان أثداء الأمين، لسبب من الأسباب، ندرة الحليب مثلاً، أو لأن حليب إحداهما مقطوع، أو لانشغالها في تهيئة الضيافة. وما كان أسهل على الأم المرضعة من أن تترك رضيعها إلى جانبها وترضع ابن جارتها. وكثيراً ما رأيت نساء تضع الواحدة منهن ابنها على ثدي وابن جارتها على الثدي الآخر، وكانت هذه الرضاعة تؤدي إلى تآخي الرضيعين، وأحسب أن أسراً كثيرة في دمشق أيام زمان كانت منفتحة على بعضها بوساطة الرضاعة.

ونشأت وأنا أعرف أن لي أكثر من أم في الرضاعة، وأكثر من أخوة وأخوات. وكانت هذه القرابة تجيز لأصحابها أن يدخلوا بيوت مرضعاتهن وأبنائهن وبناتهن، وأن ينكشف حريم هؤلاء عليهم. وهكذا وجدت نفسي محاطاً بأقارب لا تربطني بهم صلة إلا صلة الرضاعة. وكان من الممكن ألا تقوم هذه الصلة لولا تلك الرضاعة العابرة التي رضعتها

من تلك الأم، أو تلك الرضعة التي رضعها ذلك الرضيع من أمي.

هل كان هذا التصرف مقصودا لتنفتح أسر دمشق على بعضها يومئذ..؟ ربما. ولكن قرابة الرضاعة كانت تمر بعقبات. كان بعض الرجال يشدد على نسائه المرضعات ألا يفعلن ذلك، أي لا يرضعن أطفالاً غير أطفالهن، ولو كان الرضيع المجلوب إلى بيوتهن محتاجاً إلى رضعة. وكانت بعض النسوة يرضعن أطفالاً بغير علم أزواجهن، مما يؤدي إلى مشاكل صعبة ومعقدة. فقد كان في العرف السائد أن قرابة الرضاعة تمنع التزاوج بين رضيع ورضيعة من ثدي واحد، بل كانت تمنع التزاوج بين أقاربه وأقاربها بنسبة معينة من القرابة. وسمعت كثيراً في سنواتي الأولى عن زواج تم بين شاب وفتاة فحدث نفور بينهما ثم تبين أن بينهما قرابة رضاعة، مما أدى إلى الطلاق.

وكان يقابل هذا الانفتاح بين الأسر الدمشقية بوساطة قرابة الرضاعة تزمت في انكشاف الحريم، أي النساء – بلغة ذلك الزمان – على الرجال، حتى ولو كانت القرابة الحقيقية قائمة.

وكان بعض أرباب الأسر يمنع الشابة في أسرته من لقاء ابن عمها وابن خالتها أو من في حكمهما في القرابة من الخروج سافرة أمامهم. وكان بعضهم يمنعها حتى من استقبالهم في البيت إن كانت وحيدة. على هذا، عشنا سنوات عمرنا الأولى، ورأينا كيف كانت الفتاة تتحجب أمام قريبها أو تختفي عن ناظريه إذا ما جاء في زيارة، لكنها كانت تسفر أمام شاب كانت القرابة بينهما ليست سوى قرابة الرضاعة. وكانت هذه من المتوارث في دمشق أيامنا الأولى.

كان الزواج محرماً بين الأخوة في الرضاعة في دمشق، وكانت تظهر عواقب مثل هذا الزواج إن تم دون معرفة بأن الزوجين أخوان في الرضاعة أو أن قرابتهما قائمة بسبب الرضاعة بين الأسرتين. ولكن من أسباب هذا الزواج في الأسرة عدم انفتاحها على الغرباء، وخاصة فيما يتعلق بالمال و"المالكانات" (العقارات)، أي خشية وصول مال الأسرة إلى الغريب. وكثيراً ما كان يتم الاتفاق على زواج ابنة العم من ابن عمها منذ الصغر وحتى منذ ولادتهما. كان هذا الزواج المقرر سلفاً مألوفاً في زماننا، وكثيراً ما كان طالب الزواج يواجه بكلمة حاسمة "البنت مربوطة لابن عمها أو ابن خالها" منذ الصغر. وكان هذا يعني أن زواجه منها مستحيل، وأن عليه البحث عن فتاة غير مربوطة بزواج مقرر سلفاً.

وفي زماننا، كانت المصاهرة تعني انفتاح أسرة الصهر على أسرة العم، أي والد الفتاة. لكن المصاهرة لم تسمح بانكشاف النساء على الرجال بين الأسرتين إلا في حدود القرابة الشديدة. فكانت أم العروس تسفر أمام صهرها، لكن أخواتها كان يظهرن أمامه بحجاب على الرأس، وأحياناً كان الظهور ممنوعاً عليهن.



تحديد لا تجريد

بقلم المهندس:
كمال راغب الجابي

لفـت نظـري، كما لفت نظر الكثيرين علـى ما أظن، خبر صغير ومثير، عرض على شاشـات الـتلفاز، ونشر بين أخبار الصحف، وتناقلـته باقـي وسائل الأعلام.. أفاد بأنه تم تسجيل حركة مبيع ما يربو على عشرة ملايين نـسخة مـن الجزء السادس من رواية الكاتبة الأمـريكية (جوان كاتلين) والتي أطلقت عليها اسـم (حمـى هـاري بوتر) وذلك خلال أربع وعشرين ساعة فقط من صدورها. وأنه يتوقع أن تـنافس مبيعات هذا الجزء مبيعات الأجزاء الخمـسة الـسابقة التـي تجاوز ما بيع منها مائتـين وخمس وسبعين مليون نسخة، بواقع خمـس وخمسين مليون نسخة لكل جزء، ولقد دفعنـي هـذا الخبـر إلى إجراء حساب بسيط بتقـسيم عـدد النسخ المباعة من كل من هذه الأجـزاء على مجموع الشعب الأميركي البالغ بحـدود ثلاثمائة مليون نسمة والتي يعتقد أن هـذه النسخ بيعت في أراضيه أو على مجموع سـكان ما يطلق عليه اسم العالم الأول والبالغ بحدود مليار نسمة عند افتراض أن هذه النسخ بيعت من جميع دول هذا العالم وبدون استثناء. فتبين لي بأن كل ستة أفراد من هذا الشعب أو كـل عشرين فرداً من هذا العالم قاموا باقتناء نسخة من ذلك الكتاب، وبالتالي قاموا بقراءتها حسب طبيعة الأمور.

كمـا دفعنـي الخبـر نفسه إلى إجراء حـساب مماثـل علـى أغلب الكتب التي تطبع لديـنا، والتـي لا يـزيد متوسـط عدد النسخ المطـبوعة منها عن ألف نسخة، بتقسيم هذا العـدد على عدد المواطنين عندنا والذي يتجه إلـى عـشرين مليون نسمة، إذ يظهر بنتيجة القـسمة بأن حوالي عشرين ألف شخص منهم يقومـون بـشراء نـسخة من أي من الكتب المطـبوعة عـند افتـراض بيع جميع ما طبع وقراءة كل من اشترى منها.

ولدى إضافة هذه الإحصائية الافتراضية الخاصة إلى الإحصائيات الفعلية العامة التي تشير إلى قلة عدد العناوين المطبوعة من الكتب بالموازنة بعدد السكان، حيث لا تتجاوز في العالم العربي بأجمعه عشرين عنواناً لكل ألف من مواطنيه بينما تصل إلى ضعف هذا العدد في القارة الأفريقية وإلى حوالي عشرين ضعفاً في القارتين الأوربية والأمريكية، لتبين لنا حجم المأساة المركبة التي يعاني منها عالمنا العربي والتي تعد في اعتقادنا السبب الرئيسي في تردي أوضاعه وتنامي أوجاعه.

ولعل الجذور البعيدة لضعف القراءة في العالم العربي الإسلامي تعود إلى سياسة التجهيل التي مورست على مواطنيه على مدار تاريخهم، والتي تميزت بالتناقض بين الشعار الذي رفعه أولو الأمر والمرتكز على الحديث النبوي الشريف بأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وعلى السنة النبوية الشريفة التي عمدت إلى الإجراء الحكيم القاضي بالربط بين رد الأسرى وبين قيامهم بتعليم بعض المسلمين في غزوة بدر وبين التطبيق العملي لهذا الشعار وذلك بحصر مفهوم العلم بالعلوم الدينية فقط. وبقيام بعض الفقهاء، وفقهاء السلطة منهم بالذات، بممارسته وكالة عن باقي المواطنين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بعدم استمرار جهود العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين العلوم الدينية المجردة والعلوم الحياتية المجسدة، والذين تتالى ظهورهم بشكل فردي. وبعدم تهيئة المهد المناسب للشق الحياتي العملي من علومهم عن طريق عدم التشجيع على إنشاء قواعد مؤسساتية تحمل لواءهم وتكمل مسيرتهم بعد أن طواهم الثرى.

ولقد أدى إهمال أسلافنا لحقهم كجماعة بالمطالبة بنصيبهم من هذه العلوم وإغفالهم لواجبهم بالتمسك بأذيالها وبخاصة خلال العصر الذهبي الذي لم يمر عليهم مرور الكرام. وإيغالهم في الانقياد إلى توجيهات معظم أولي الأمر التي أبعدتهم عن ما يفيدهم من علوم دينية ودنيوية وأبعدت هذه العلوم عنهم ليخلو لهؤلاء الأولياء الجو للتصرُّف بأحوالهم بالشكل الذي يحقق مصالحهم، أدى ذلك كله إلى وصولنا إلى درجة جعلت الأمة التي ننتسب إليها من أقل شعوب العالم علماً وتقانة، كنتيجة حتمية لجعلها من أقلها بحثاً وقراءة، كما تشير إليه الإحصائيات الصادرة عن الجهات المختصة والمترجمة لواقع الحال لدينا والتي تبين بوضوح بأننا لا زلنا نعاني وبشدة من الأمية اللغوية في عصر تمكنت فيه كثير من شعوب العالم من التغلب على الأمية الإلكترونية، رغم حداثة القراءة الإلكترونية وقدم القراءة الورقية والتي كان لنا قصب السبق في جعلها أساس المعرفة وركيزتها بابتكارنا الأحرف الأبجدية منذ فجر التاريخ.

ولما كنا على قناعة أكيدة بأن تقديم الحلول المناسبة للمشاكل التي نعاني منها هو الجزء الأهم في معالجة هذه المشاكل من قبل كل من يتعرض لها من المفكرين. حتى يجد أولو الأمر من ناحية، ومن يعاني من هذه المشاكل من ناحية أخرى بدائل مختلفة ليختاروا منها الأنسب والأفضل والأجدى لمعالجتها، وذلك لإيماننا العميق بمقولة الأدب للحياة وليس الأدب للأدب، وتسليمنا الأكيد أن الأدب من أهم مفرزات الفكر ومن أشد الأدوات التي يتعامل بها تأثيراً في الآخرين. وأنه كالعلم هدفه إيجاد الحلول لقضايا الإنسان، وبخاصة وأننا نمر بمرحلة حضارية حرجة تتطلب بعث الإمكانيات القادرة على التطوير

والتغيـر. ونشر التفاؤل المقرون بتبيان وسائل الخـلاص ولـيس التشاؤم المصحوب بإطلاق الرصاص واعتباره وسيلة للقصاص.

من وحي هذه القناعة والإيمان الكامن وراءهـا فأننا نعيد هنا ما سبق أن أوردناه في مداخلـه على ما ألقاه واحد من كبار أدبائنا في إحـدى الأمـسيات التي أعدتها دار المدى منذ عـدة سـنوات علقنا فيها على بعض العبارات التـي وردت فـي بعض آثاره والتي قال فيها بأنـه لـم يـستطع أن يغيـر شيئاً عن طريق كتاباته، وأن الكتاب والمفكرين لدينا لا يزالون يجلـسون علـى مقاعد خلفية في قاعة الحياة بينما الحدادون والنجارون والحرفيون يجلسون فـي مقاعـد أمامية منها، بقولنا أن هذه الفئة الأخيـرة مـن المهنيين تستحق المقاعد التي تجلـس علـيها لأنهـا تقدم عملاً منتجاً رغم مغالاتها في كثير من الحالات في تقاضي مقابل هـذا العمـل. بيـنما أغلب أفراد الفئة الأولى يغالـون في طلب مقابل للأعمال غير المنتجة التـي يقومـون فـيها والتي تكتفي في معظم الأحـوال بالعرض والتحليل وباللوم والتقريع، وبالتجـريد ولـيس بالـتحديد دون أن تبـيِّن الوسـائل العملـية الكفيلة بإخراجنا من التيه الـذي نغرق فيه ومن تبديد العتمة التي تحيط بنا من كل جانب.. ولم تكن إجابة الكاتب الكبير التـي أوجزها بعبارة (أنا هيك) مقنعة لنا بهذا الخصوص. كما لم تكن إجابة مدير الدار الذي يجلـس بجـواره على المنصة مقنعة لنا أيضاً عندما قال بأن الكاتب ليس زعيماً لحزب وإنما هو حامل قلم فقط.

ونعـود إلـى موضوع ضعف القراءة لديـنا لنقول بأن هذا الواقع الأليم يدفعنا، ومن منطلق التحفيز وعدم التيئيس، ليس إلى إدانة ممارسات الأقدمين فقط الذين لم يقوموا بقوننة التعالـيم الـسماوية التي أقرت بأنه لا يستوي الـذين يعلمـون والـذين لا يعلمون، والتعاليم النـبوية التـي جعلت العلم فريضة على جميع المؤمنـين، ولـيس إلـى شمل المحدثين بهذه الإدانـة لكـونهم لا يأخذون هذه التعاليم مأخذ الجد، بل إلى طرح بعض الأفكار التي قد تكون مفـيدة في تشجيع المواطنين على القراءة في ظل الواقع الذي نعيشه ووقائعه التي تحيط بنا والـذين يـؤكدان معـاً بأن توصيف أمراضنا الاجتماعـية والتنديد بها، والتوجيه والإرشاد إلـى أخطارهـا لا تـؤدي جمـيعها الأغراض المـرجوة مـنها. بدليل الأمية الثقافية السائدة لـدى أغلـب المواطنين والتي قد تكون سبباً ونتـيجة فـي الوقت نفسه لمستواهم المعاشي المتدنـي والذي ينعكس على دخول فئة كبيرة مـنهم لا تتمكن من تخصيص جزء ملحوظ من مـواردها لشراء الكتب وباقي مصادر المعرفة بـسبب اضطرارها إلى توجيهه لمناحٍ أخرى إذ إن الملاحـظ بـأن اغلـب الـذين يملكون في المجـتمعات العربية لا يقرؤون، وأغلب الذين يرغبون في القراءة لا يملكون ثمن الكتب التي يودون قراءتها.

وترتكـز الأفكـار التـي نقدمها بهذا الخـصوص بالدعـوة لأن يجـري ربط ترفيع الموظفـين المرتبي والراتبي في القطاع العام بإجـراء امتحان خطي وشفوي سنوي لهم في خمـسة كتب صدرت في السنة المعنية نفسها. ثلاثـة مـنها تتعلق بمواضيع التخصص الذي يمارسـونه والـذي سيجرى تـرفيعهم إليه. والاثنـين الباقيـين في مواضيع حياتية عامة يجرى تحديدها وتسمية الكتب الخاصة بها من قـبل الموظف صاحب العلاقة ويجري شراؤها وتحمل قيمتها من قبل الإدارة التي يتبع لها.

كما تنسحب هذه الأفكار على العاملين فـي القطاع الخاص وذلك بأن يجري ربط منح التـراخيص اللازمة لممارسة مختلف الأعمال

الخاصة أو تجديدها، وربط الدخول في المناقصات والمزايدات والحصول على إجازات الاستيراد والتصدير وغيرها من الرخص والتراخيص الرسمية المتعلقة بممارسة فعاليات هذا القطاع بإجراء امتحانات خطية وشفوية لأفراده في خمسة كتب يجري تحديدها واختيارها من قبلهم بالأسلوب نفسه والمقترح إتباعه في القطاع العام، وبشكل يتناسب مع درجة تحصيلهم العلمي والمعرفي. وقد تكون هذه الكتب في محو الأمية لمن يعاني منها وتتدرَّج بارتفاع مستوى وتقدم معارف الآخرين. مع تحمل أصحاب الفعاليات في هذا القطاع قيمة هذه الكتب لأنفسهم وتحمل أسعارها بالنسبة للعاملين لديهم وإخضاعهم معاً كنظرائهم في القطاع العام إلى اختبار سنوي تتحمل أعباء أجرائه الجهة المعنية بالتحسين المعرفي والتي يمكن إحداث إدارات خاصة بها في المراكز الثقافية يوكل إليها أمر القيام به بعد التعاون مع الجهات ذات الاختصاص في وزارات الدولة وإداراتها فيما يتعلق بالاختبارات التخصصية، كما يمكن، بل ينبغي، أحداث إدارات لتجميع الأفكار الحديثة في هذه المراكز لتجميع الأفكار التي تتضمنها المحاضرات التي تلقى في قاعاتها والمداخلات التي تدور بين جنباتها وتقديمها للسلطات المخولة بصنع القرار للاستفادة منها في هذا المجال.

وقد يكون مناسباً في هذا السياق دمج هذا الموضوع في النظام الضرائبي وفيما يختص بضريبة (الرفاه) تحديداً بعد استبدال اسمها غير المحبب باسم ضريبة (التشجيع على القراءة). لأنه يبدو من اسم هذه الضريبة الحالي بأن المجتمع هو ضد رفاهية أفراده وأنه يقوم بفرض ضريبة عليهم بسبب ذلك، وذلك أكثر مما يبدو بأن الغرض الرئيسي من فرضها هو إشراك القادرين في الإسهام بموارد الدولة وإعفاء غير القادرين منه. بينما واقع الأمر أن الضريبة التصاعدية لم توجد إلا لتحقيق هذا الغرض وأن حسن تطبيق القوانين الناظمة لها كفيل بالوصول إلى الأهداف المرجوة منها.. حيث يمكن عند تغيير اسم هذه الضريبة، إضافةً إلى عدم إثارة الحساسية عند فئة من المواطنين القيام بتحصيل مبالغ مقاربة بربط النسب التي سيجري تحصيلها منها بالدرجات التي يحصل الأفراد الذين سيجري اختبارهم في الكتب التي يطلب منهم قراءتها وبزيادة مقدارها في حال عدم نجاحهم أو حصولهم على درجات متدنية فيها..

قد ترتسم البسمة على شفاه بعض من يقومون بقراءة هذه الفكرة أو مجرد سماعها من الآخرين معتبرين إياها فكرة خيالية غير قابلة للتطبيق. لكننا على ثقة تامة بأنه ينبغي النظر إلى أية فكرة يجرى طرحها على ضوء النتائج المتوخاة منها أكثر من النظر إليها من منظار الصعوبات التي قد تعترض تطبيقها. كما ينبغي الأخذ بعين الاعتبار بأن المجتمعات المتقدمة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلاَّ عن طريق قيامها بتنفيذ أفكار كانت تبدو خيالية في وقت من الأوقات لكن الواقع أثبت بطلان ذلك مما حدا بهذه المجتمعات إلى تبني الأفكار البناءة حتى لو كانت مغرقة في غرابتها كفكرة فتح خطوط اتصال مباشرة بين وكالة الفضاء الأمريكية وبين الأطفال تتلقى عن طريقها أفكارهم وتصوراتهم الخامة غير المرتبطة بمعارف مسبقة أو المشوبه بتعقيدات الحياة وتقوم بالتحاور معهم حولها وتعمد إلى تفحص مفرداتها والإفادة منها..

ولعل خير ما نختتم به هذا الحديث المقتضب ما جعلته دار الأوائل للنشر والتوزيع شعاراً لأحد الكتب القيمة التي تصدرها والذي ينص (قرؤوا ووصلوا فلنقرأ حتى نصل)..




رجلٌ في الذاكرة..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

مُشْكلتي معكَ، لا عَلاقَةَ لها بقلبي
بل بذاكرتي..
هذه الذاكرةُ التي تحتلُّها احتلالاً قَسْرِيّاً
منذُ مئة عامْ..
دُونَ رضايَ..
ودُونَ إرادتي..
ودُونَ أن يكونَ معكَ عقْدٌ للإيجار..

-٢-

منذُ مئة عامْ..
وأنتَ تعيشُ في ذاكرتي
كما لو كانتْ شَقَّتَكَ الخُصُوصيَّةْ
تتمدَّدُ على وسائدها متى تشاءْ..
وتُعلِّقُ ثيابكَ في خزائنها متى تشاءْ..
وتأخُذُ قيلولتكَ فيها حين تشاءْ..
وتستعملُ ثلاَّجتَها..
وتصنعُ قهوتَكَ حينَ تشاءْ..

-٣-

منذُ مئة عامْ..
وأنت مُعْرِبَشٌ كحشائشِ البحرْ
على شواطئِ ذاكرتي
أطلبُ منكَ الهجرةَ.. فلا تُهاجِرْ
وأشتري لكَ بطاقةَ سفر .. فلا تسافرْ
وأُغلقُ حقائبكَ.. فتفتحها من جديدْ..
وأطلبُ من البوليس أن يُلقي القبض عليكْ..
فيُلقي القبضَ عليّ..

-٤-

منذُ مئة عامْ..
وذاكرتي لا تتذكَّرُ رجُلاً غيركْ..
ولا تعرفُ من التاريخ، غير تاريخكْ
ولا تعرفُ من الجغرافيا، غيرَ مساحةِ يديكْ..
ولا تعرفُ من الثقافة.. سوى كلمات الحبِّ
التي تكتبُها على قميصي..

-٥-

منذُ مئة عامْ..
وأنا أحاولُ أن أكسرَ دائرةَ الطباشيرْ
التي حبسَتْني فيها..
وخبّأتَ مفاتيحَها في جَيْبِكْ..
منذُ مئة عامْ..
وأنا أحاولُ أن أقنعَكَ باحترامِ حقوقِ الإنسانْ
وحقوقِ الأُنوثَةْ..







ولكنّكَ.. ككُلِّ ذُكورِ القبيلَةْ..
بقيتَ مُصرّاً على الاحتفاظ بممتلكاتكْ..
التي لا يغيبُ عنها الشمسُ..
وبقيتَ رافعاً أعلامكَ الحمراء
فوق أسوار ذاكرتي..

-٦-

أيُّها الجالسُ مَلِكاً فوقَ عَرْشِ ذاكرتي
حَرِّرني ولو ليومٍ واحد من سُلْطانكْ
فكلُّ شارعٍ أمشي فيه.. يحملُ اسْمَكْ..
وكلُّ مقهى ألجأُ إليه.. يرفُضُني
وحدي..
وكلُّ حديقةٍ عامةٍ تُقْفلُ أبوابَها في
وجهي..
وكلُّ البوتيكات التي أشتري منها ثيابي
لا تبيعُني شيئاً.. قبلَ أن أستشيركْ..
فاخْرُجْ من تحت جلْدي
حتى أعيشَ حياتي بصورةٍ طبيعيَّةْ..
وأتنفَّسَ بصورةٍ طبيعيَّةْ

-٧-

إنّني أحملُكَ في داخلي
كامرأة في شهرها التاسعْ..
فكيفَ أتخلّصُ منكْ؟
كيفَ أقطعُ حَبْلَ مشيمتي مَعكْ
وأنت مُشْتَبِكٌ ككُرةِ الصّوفْ
بأحلامي، ورغباتي، وجهازي
العصبيّ؟
كيفَ أتركُكَ على قارعةِ الطريق
تحتَ الثلج والمطر،
والأعاصيرْ..
وأنت أوّلُ طفلٍ ولدتُهُ..
وآخرُ طفلٍ سوفَ ألِدُهْ..؟

-٨-

لقد سقَطَ جدارُ برلين، يا سيِّدي
وسقطتْ حجارةُ العالم القديمْ
وتحرَّرتْ جنوبُ إفريقيا
من حكم الرّجُلِ الأبيضْ..
بعد ثلاثمئةَ عامْ..
فلماذا، يا أيُّها الرجُلُ الأبيضْ
تواصلُ احتلالْ ذاكرتي؟
لماذا تزرعُ الألغام في ذاكرتي؟
والحرائقَ تحت مخدّتي؟

-٩-

كيف أقتلعُكَ من ذاكرتي
وأنت متشبّثٌ بها
كما تتشبَّثُ الشُّعَبُ المرجانيّةْ
بصخورِ البحر الأحمر..؟

-١٠-

يا أيُّها المستأجرُ الأبديُّ لمشاعري
اذهبْ إلى أيِّ فندقٍ تشاءْ..
وأنا سأدفعُ أجرةَ إقامتكْ..
ادخلْ إلى أيِّ مقهى تختارُه..
وأنا سأدفعُ ثمنَ قهوتكْ..
تزوّجْ من أيّةِ امرأةٍ تعجبُكْ
وأنا سأدفعُ لك المَهرْ!!!






لقد ظهرت عوامل النهضة في زمن محمد علي باشا سنة ١٨٤٩، ومن بوادر هذه النهضة إرسال البعثات إلى مختلف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون، ثم قاموا بتأسيس مدارس وجامعات، ثم توالت الترجمة في العلوم والفنون إضافة إلى التأليف، كما ونشطت الطباعة وتأسست الجمعيات العلمية والأدبية والمكتبات في كل من لبنان وسوريا ومصر والعراق وبعض البلاد العربية الأخرى. كما واشترك الأجانب بفتح مدارس لتعليم اللغات مما أدى إلى تنشيط حركة الاستشراق، ومن أشهر المستشرقين:

- بروكلمن.
- دي سلان.
- دوزي.
- دي غويه.
- لويس مسينيون.
- مرغيلوث.

هذه هي أهم العوامل التي ساعدت على بزوغ النهضة الحديثة.

ومن هذا نلاحظ أنه قويت أغراض النثر الأدبي والاجتماعي والسياسي وكذلك الخطابة، كما وأن القصة تطورت، وترجمت بعض القصص غير العربية، إضافة إلى نشاط نواحي الإنتاج الأدبي كالنقد وتأليف الروايات، ومن الأدباء الذين برزوا: جميل صدقي الزهاوي.

شاعر بغدادي، ولد من أبوين كرديين عام ١٨٦٣، تميزت أسرتهما بالدين والفقه والأدب.

درس آداب اللغة الفارسية والتركية إلى جانب العربية، وأحرز كثيراً من العلوم والفنون، وتعمق في علم التوحيد والفقه الإسلامي والمنطق والفلسفة والتصوف.

عُيِّنَ أستاذاً للقانون في كلية الحقوق.

الزهاوي كان (بطلاً من أبطال النهضة). (كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة)، ثم يقضي الليل ساهداً يقرأ أو ذاهلاً ينظم، فالقصص والمجلات منتشرة على

سريره وعلى مقعده، والأوراق تحت وسادته أو في ثيابه، ويقول: "انظروا كيف أذيب عمري في شعري، إني سأذهب وستبقى أشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بآلامي فهي دموع ذرفتها على الطرس".

مؤلفاته:

- ديوان الكلم المنظوم.
- ديوان بعد الدستور.
- ديوان هواجس النفس.
- ديوان بقايا الشفق.
- رباعيات الزهاوي.
- ديوان الشذرات.
- ديوان نزعات الشيطان.
- عيون الشعر.
- الكائنات.
- الجاذبية وتعليلها.
- الدفع العام والظواهر الطبيعية والفلكية.
- محاضرة في الشعر.
- الفجر الصادق في الرد على الوهابية.
- رسالة اشراك الداما.
- حكمت إسلامية درسلري، تركي.
- الخيل وسباقها.
- الأوشال.
- ليلى وسميرة، رواية.
- اللباب، ديوان شعر.
- ثورة في الجحيم.
- ديوان جميل صدقي الزهاوي.

نظم الزهاوي الشعر بالعربية والفارسية وهو صبي، وأجاد فيهما. إذن (فالشعر رسالة الطبيعة على لسان أحد بنيها إلى أبنائها).

ومما نظمه في رسالة الشعر قوله:

ما الشعر إلا شعوري جئت أعرضه
فانقده نقداً شريفاً غير ذي خلل
الشعر ما عاش دهراً بعد قائله
وسائر يجري على الأفواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سامعه
كمن تكهرب من سلك على غفل

عندما أراد الزهاوي العودة من الآستانة إلى وطنه لم يسمح له السلطان بالعودة فنظم الزهاوي قصيدة حادة واستمر في ذمه للسلطان وسياسته فأمر السلطان بسجنه ونفيه، ومما جاء في قصيدته والتي تبين مدى جرأة الشاعر حين يقول:

نهى الله عنه والرسول المبجل
ففقر ذا مال وينفي مبرا
ويسجن مظلوماً ويسبي ويقتل
تمهل قليلاً لا تغظ إنه إذا
تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك إن طالت فلا تغتر بها
فإن يد الأيام منهن أطول

كان الزهاوي جريئاً بطبعه وطموحاً وجلداً في مواقفه، فعندما رأى أن الحكّام يلقون الأحرار مغلولين في غيابة السجن وتنفيذ أحكام الإعدام بهم والقسم الآخر يُرمى بهم في قاع البحر فنظم قصيدة في تحية الشهداء:

على كل عود صاحب وخليل
وفي كل بيت رنة وعويل
وفي كل عين عبرة مهراقة
وفي كل قلب حسرة وعليل
كان الجذوع القائمات منابر
علت خطباء عودهن نقول
ستبكي على تلك الوجوه منازل
وتبكي ربوع للعلى وطلول
وما هي إلا رجفة تعتري الفتى
مفاجأة والرأس منه يميل

انطفأت شعلة حياة هذا الشاعر في سنة ١٩٣٦.



رنا قباني الأديبة التي دافعت عن روحانية الشرق

بقلم الأستاذ:
عيسى فتوح

الدكتورة رنا صباح قباني أديبة وشاعرة وباحثة وإعلامية سورية جريئة.. ولدت عام ١٩٥٨ في دمشق، في بيئة محافظة على قيم التربية الإسلامية، ومنفتحة على قيم الغرب الفكرية، وأسرة عريقة أنجبت عدداً من الكتاب والفنانين والشعراء والسياسيين، فجدها الأكبر هو أحمد أبو خليل القباني (١٨٣٣-١٩٠٣) مبدع المسرح الغنائي العربي في مصر والشام، وعمها هو الشاعر الكبير نزار قباني (١٩٢٣- ١٩٩٨) ووالدها هو الدبلوماسي الدكتور صباح قباني مؤسس التلفزيون السوري عام ١٩٦٠، وأحد مؤسسي الإذاعة السورية ووزارة الثقافة، وسفير سابق لسورية في الولايات المتحدة الأمريكية، وجدها لأبيها هو الوطني المعروف والصناعي الشهير توفيق القباني، أما والدتها فهي السيدة مها النعماني ابنة السيدة سلوى الغزي المتحدرة من أعرق وأقدم العائلات الدمشقية والتي كان منها فوزي الغزي (واضع أول دستور سوري عام ١٩٢٨) وسعيد الغزي الذي تقلد رئاسة الوزراء أكثر من مرة.

وقد تأثرت رنا كثيراً بشخصية جدتها سلوى التي كانت من أوائل النساء الرائدات في العمل السياسي والنهضوي فهي من مؤسسات (جمعية يقظة المرأة الشامية) خلال الحكم الفيصلي كما كانت إحدى الموقعات على النداء الوطني الشهير الذي وجهته نساء الجمعية لحث الرجال السوريين على صد الجيش الفرنسي الزاحف نحو دمشق لإسقاط فيصل والملكية العربية الوليدة ومباشرة انتداب فرنسا على سورية.

تلقت دراستها الابتدائية في نيويورك، حيث تفتحت موهبتها الشعرية وهي في السابعة، والإعدادية والثانوية في دمشق، ثم التحقت بجامعة (جورج تاون) في واشنطن،

حيث نالت شهادتي البكالوريوس والماجستير بدرجة شرف، ثم انتسبت إلى جامعة كمبردج في بريطانيا، وحصلت على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والآداب الإنكليزية عام ١٩٨٦ بأطروحة عنوانها (أساطير أوروبا عن الشرق - لفِّقْ تسدْ).

تزوجت عام ١٩٨٠ من الشاعر الفلسطيني محمود درويش، لكن هذا الزواج لم يستمر طويلاً، ثم تزوجت من الكاتب السياسي الإنكليزي (باتريك سيل) وأنجبت منه ولدين، وهي تقيم الآن مع زوجها وولديها في باريس، لكنها تزور مسقط رأسها في دمشق من حين لآخر، لتستعيد ذكريات طفولتها فيها.

آثارها الأدبية

١- الطريق إليك The Road to you (شعر باللغة الإنكليزية) صدر عام ١٩٧٣ وكان عمرها خمس عشرة سنة.
٢- أساطير أوروبا عن الشرق - دار ماكميلان - بريطانيا ١٩٨٦ ودار طلاس (بالعربية) دمشق ١٩٨٨.
٣- رسالة إلى الغرب - دار الآداب - بيروت ١٩٩١، ودار الأهالي - دمشق عام ٢٠٠٠.

* * *

كان كتاب (أساطير أوروبا عن الشرق - لفّقْ تسد) هو الكتاب الثاني الذي أصدرته الدكتورة رنا قباني بعد ديوانها (الطريق إليك) وقد صححت فيه الصورة المشوهة التي رسمها الرحالة والمغامرون الأوروبيون أمثال ريتشارد بيرتون وتوماس لورنس (١٨٨٨-١٩٣٥) عن الشرق والغرب والإسلام، إذ أدركت أن معظم الصور التي أعطيت عن العالم العربي والإسلامي صاغها جميعاً تراث أدبي وفني ازدهر في ظل رعاية الإمبريالية، وأن الثقافة كانت مرتبطة بالاستعمار الغربي ارتباطاً وثيقاً.

لقد صور الكتّاب والرسامون الأوروبيون الشرق العربي والإسلامي في كتبهم بأنه بؤرة للعنف والجنس والكسل والتعصب.. وبأن أهله غير مؤهلين لحكم أنفسهم، فكأنهم بذلك مهدوا الطريق - ولو بصورة غير مباشرة - أمام مجيء جيوش أوروبا وموظفيها الاستعماريين، وكانت صورة النساء الشرقيات بالذات في كتابات برتون الإباحية من صنع الخيال الأوروبي، ولا تمت بصلة إلى الحقيقة والواقع، كما أنها كانت تخدم أغراضاً سياسية بحتة.

لقد كشف هذا الكتاب للقارئ الغربي صورة ازدراء الكتاب الغربيين وتحقيرهم رجال الشرق ونساءه، وكيف أن الكتّاب والرسامين والمصورين الاستشراقيين لم يروا في المرأة الشرقية سوى أنها بعض من متاع امبراطوريتهم، فهي عندهم إما جارية أو محظية، أو راقصة أو مومس أو قاتلة أو غاوية ولا شيء غير ذلك.

كما حظي باهتمام واسع في أرجاء أوروبا وأميركا، وترجم إلى عدد كبير من اللغات العالمية، وقرظه نقاد كثيرون في بريطانيا وأميركا، فقد قالت الناقدة الأميركية (ديبورا ميسن) في جريدة نيويورك تايمز: "لقد بينت الدكتورة رنا قباني أن محصلة كتابات الرحالين الاستشراقيين هي تأكيد للتحامل الغربي، وتخليد للصورة التي لفّقتها أوروبا عن الشرق".

وكتب (آصف حسين) في مجلة (الدراسات الإسلامية) التي تصدر في لندن: "إن أهمية هذا الكتاب تأتي لا من مجرد فضحه لأساطير الأوروبيين عن الشرق، بل أيضاً من

أنــه يزوّد القارئ بدروس من الماضي لتكون عبــرة للمــستقبل، فالغرب لم يتوقف قط عن اختــراع الأساطير، وعندما تبرز كاتبة مثل رنا قبانــي لتتــصدى لهــا، فإن ما كتبته يجب أن يــصبح قــدوة لكل من يقاوم موجة الأساطير الجديدة".

وكتــبت الــناقدة (آنجــيلا كارتر) في جــريدة (الغارديــان) اللندنــية: "إن رنا قباني اســتطاعت كامرأة عربية ذات حجة قوية، أن تــسقط الأقــنعة عــن وجوه الكتاب الغربيين الاستــشراقيين الذين كانوا في نظر مواطنيهم أنصاف آلهة".

وكــتب (بيتــر كونــراد) فــي جريدة (الأوبزرفر) البريطانية: "إن رنا قباني المولودة فــي دمــشق أخذت على عاتقها إنقاذ الشرق العربــي والإسلامي مما لحق بهما من ازدراء غربــي على مدى قرون عديدة، ولا شك أنها فــي غضبتها العارمة التي تغلي في كل سطر من سطور كتابها كانت على حق تماماً".

أمــا كتابها الثاني (رسالة إلى الغرب) الــذي أصدرته دار (فيراغو) للنشر في لندن عــام ١٩٨٨، فقــد تابعــت فــيه حديثها عن اســتمرار الــرؤية الغــربية المشوهة للعرب والإســلام هــذه الرؤية التي ظهرت علناً بعد صــدور كتاب (آيات شيطانية) لسلمان رشدي، فقــد بين دفاع بعض الكتاب الغربيين عنه، أن عــداوة الغــرب للــشرق لم تتم فصولاً، وأن ســيوف حــروب الفرنجة لا تزال مشهرة في وجوهــنا، مــثلما كانــت علــيه فــي القرون الماضية.

لقــد اهتمت دور النشر العالمية بهذا الكــتاب الجديــد، فترجم إلى اللغات الألمانية، والدانماركية، والهولندية، والتركية، والعربية، وحين ترجمه والدها الدكتور صباح قباني إلى اللغــة العــربية، وصــدر عن دار الآداب في بيروت عام ١٩٩١، ودار الأهالي بدمشق عام ٢٠٠٠، تــوالت تعلــيقات النقاد على الكتابين والإشــادة بهمــا فــي عــشرات المقالات في الصحف والمجلات السورية والعربية، فقد كتب الــشاعر بلند الحيدري (١٩٢٦- ١٩٩٦) عن كــتاب (أساطير أوروبا عن الشرق) قائلا: "إنه بمــثابة ممر لعودتنا إلى محاكمة التاريخ الذي كتــبه المنتــصر الأوروبي، وكان شاهد الزور علــيه أيــضاً، لــيكون له وحده الحق في أن يصنفنا شعوباً وأمماً وشيعاً حسبما يريد لنا أن نكــون، فالكــتاب هو رد بالوقائع على افتراء الغرب على تاريخنا، وهو جهد متميز، وتذكير للمؤسسات الثقافية العربية بمدى تقصيرها في هــذا المجــال، ومــدى ما عليها الآن بعد أن اتــسعت للتزييف مجالات أوسع وأخطر، عبر الــسينما والتلفــزيون والفــضائيات، والتــي تستوجب رصداً مستمراً ويقظاً".

وقالــت الأديــبة غــادة السمان: "إن دراســة رنــا الرصينة العميقة، نموذج جميل لوعي المرأة العربية، وقدرتها على الإبداع في الحقــول كلهــا. إن رنــا العاشــقة الدمشقية للحقــيقة، استطاعت أن تمنح المكتبة العالمية والعــربية عملاً هاماً يلقي الأضواء على جذور ســوء الــتفاهم بيننا وبين الغرب، ويسهم في إيجــاد الــدرب العملــية للقــاء إنساني عادل ومثمر".

ومــن أهم الأبحاث النقدية التي كتبت عــن الكتابــين، ونــشرتها الصحف السورية والعربية، تلك التي كتبها الأدباء: سعد القاسم، والدكــتور محمد الحبش، وأحمد كمال حمدي، وحمديــة خلــف، ونجاة قصاب حسن، وعادل أبــو شــنب، وعلــي القــيّم، وقمــر الزمان علوش، ومصباح الغفري، وكلود سابا، ورينيه الحايــك، ومحــسنة الخطــيب، وصبحي سعيد وغيرهم.

منذ أن استقرت الدكتورة رنا قباني في لندن، أخذت تمارس الكتابة الثقافية والسياسية في أهم الصحف والمجلات البريطانية التي تكلفها باستمرار بمراجعة الكتب الحديثة ذات العلاقة بالتاريخ العربي والإسلامي أو التي تتناول الجوانب السياسية في قضايا الشرق الأوسط، ومن أبرز الصحف التي تكتب فيها: التايمز، الغارديان، الإندباندت والأوبزرفر، والهيرالد تريبيون، والديلي تلغراف، ونيوستيتمان".. وتكتب من حين لآخر في بعض الصحف العربية التي تصدر من لندن مثل: "الحياة" و "الوسط" وغيرهما...

كما تستضيفها باستمرار محطات الإذاعة والتلفزيون المحلية والفضائية مثل B.B.C و C.N.N للمشاركة في الحوارات والمناقشات التي تجريها، وغالباً ما تدعوها هذه المحطات للحضور إلى ستوديو الأخبار فيها، ليحاورها مذيع النشرة الإخبارية، ويطلب منها التعليق على خبر جديد، أو تطور حدث في المنطقة العربية، أو في بلدها الأم سورية. وبالطبع فإن جميع تعليقاتها تنطلق من رؤيتها القومية العربية، بهدف تصحيح المغالطات التي تكون قد وردت في طيّات الخبر المذاع.

لقد كلفها التلفزيون البريطاني بإعداد وتقديم مجموعة من البرامج الوثائقية، كان من أهمها (توق إلى الإيمان) الذي تناولت في حلقاته الأربع أوضاع الجالية الإسلامية في بريطانيا، كما طلب منها التلفزيون المذكور عام ١٩٩٥ الذهاب مع فريق تلفزيوني إلى سورية، لإعداد برنامج عن الجولان المحتل، وبالفعل جاءت إلى سورية وقامت بتغطية قضية الجولان من المنظور السوري وأجرت حوارات مع الذين شرّدهم العدوان الإسرائيلي، بعد أن دمر بيوتهم في الهضبة، واحتل أراضيهم، واستفاضت في الحديث عما تعرضوا له من مظالم، وأبرزت إصرارهم على العودة إلى ديارهم، مهما طال أمد الاحتلال الإسرائيلي.. وقد أحدث البرنامج ضجة كبيرة في بريطانيا وإسرائيل لدى عرضه على الشاشات البريطانية يوم ١٩٩٥/٥/٢٨، لأنه قلب الصورة التي كانت وسائل الإعلام تحاول رسمها عن الجولان من وجهة النظر الإسرائيلية، وقد نشرت جريدة (جيروساليم بوست) الإسرائيلية مقالا بقلم دافيد بار إيلان بتاريخ ١٩٩٥/٦/٩، وافتتاحية بتاريخ ٦/١٨/ ١٩٩٥ هاجمتا فيهما الدكتورة رنا وهيئة الإذاعة البريطانية، واتهمتهما بأنها: "عرضت برنامجاً دعائياً سورياً، قدمته قباني بلغة عاطفية، تهدف إلى استمالة المشاهدين وإقناعهم بالموقف السوري في الجولان".

لقد عكس هذا البرنامج موقفها المبدئي الذي إلتزمته في جميع مقالاتها ومحاضراتها وكتبها، القائم على التمسك بجذورها العربية والإسلامية، والتصدي لكل ما من شأنه أن يسيء إلى تراثنا القومي بالافتراء أو التجني أو التلفيق أو الدس.

ومن المعروف أن رنا تزود بمشورتها فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية ولي العهد البريطاني الأمير (تشارلز) الذي اعتمد على كثير من الأفكار التي زودته بها في خطابيه الشهيرين اللذين ألقاهما عن (الإسلام والغرب) في مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية في ١٩٩٣/٣/٢٧ وعن (بناء الجسور بين الإسلام والغرب) في (ويلتون بارك) في ١٢/١٣/ ١٩٩٦.




الدروب تهرب أحياناً..

شعر الدكتور: عمر النص

لا تَسَلْها لم ينأى الأفْقُ
الرؤى عُمّت فأين الطرُقُ

هاجرَ الصيفُ فهل من غابة
لم يزل يدفقُ منها العبقُ

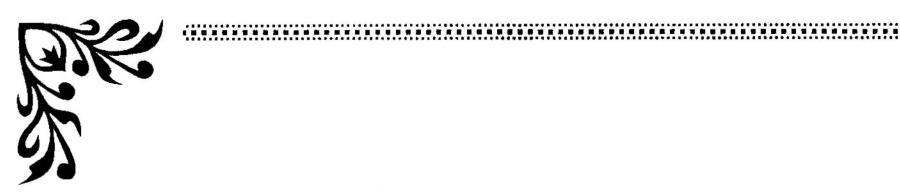
أنا والنجمُ رفيقا غُربة
فاسألِ النجمَ متى نفترقُ

ايٌّ دُنيا نسيتْ تاريخَها
شاقها الأمْسُ فهمَّتْ تنطقُ

جئتُها فانكفأتْ أسوارَها
فتركتُ الريحُ فيها تشهقُ






أنزف الكير على أعتابها
فأرى الباب ورائي يُغْلقُ

وأرى عينيْن قد أُغْمضَتا
وأراني فيهما أختنقْ

همَّت السُّحبُ فهل شاهدتْها
إنَّ فيها غيمةً تندفقُ

فكأنَّ الأرضَ مادَتْ فجأةً
وكأنَّ الصخرَ فيها يصْعقُ

أيّها الحبُّ متى موعدُنا
الصبا ولَّى.. فماذا نعشقُ

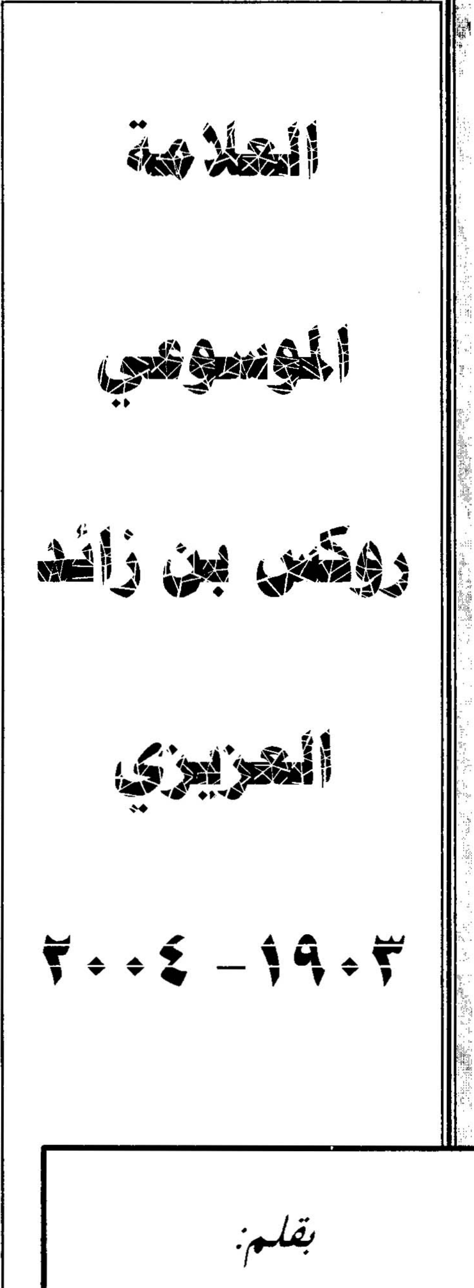
هي أوهامي أضاعَتْ وجهَها
فادنُ منها.. إنّها تحترقُ

خلتني أفْلتُّ من أغلالها
ثمَّ دَّقتُ.. فغابَ الأفُقُ

فاركب الموجَ إلى أنْ ينتهي
واحتفلْ بالنجم أنّى يشرق

واتبعِ الشمسَ إلى مَغْربِها
قبل أن تهربَ منّا الطرُق..



علم من أعلام الفكر والأدب وأحد أبرز أعلام شيوخ الأدب الذين ساهموا مساهمات كبيرة في بناء وإغناء وتجديد الحركة الأدبية في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين.

أغنى المكتبة العربية بطائفة كبيرة من مؤلفاته القيمة والمتميزة في الأدب والتراجم والتراث الشعبي الأردني.

ذاعت شهرته وطبقت الآفاق في الأردن والعالم العربي وبعض الدول الغربية وتولى مراكز عالمية ومرموقة.

أبصر النور في بلدة (مأدبا) الأردن في الثالث والعشرين من آب ١٩٠٣ وسمي روكس تيمناً بالقديس روكس الذي يقع عيده في السابع عشر من أغسطس.

نشأ في عشيرة العزيزات التي اكتسبت اسمها من سدانتها للإلهة العشق عند العرب (العزى) وتنتمي هذه العشيرة إلى (بني شيبان) أحلاف قريش.

في الشهر السادس من عمره مرضت أمه فاستأجر والده مرضعة من بني قيس اسمها (غالية) واستمرت في إرضاعه حتى أكمل عامه الثاني.

تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة اللاتين في مأدبا وهي المدرسة الوحيدة في بلدته ثم انقطع عن الدراسة بسبب نشوب الحرب الكونية الأولى سنة ١٩١٤ واستيلاء الحكومة العثمانية على المدرسة.

اتفق والده مع معلم يدرسه اللغة الإنكليزية ومعلم آخر ليدرسه اللغة الفرنسية، ثم واصل دراسته للصحافة وحصل على الدبلوم فيها.

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨ جاء إلى ماديا كاهن من بيت لحم يدعى (أنطون الحيحي) وكان يجيد العربية والفرنسية والإيطالية واللاتينية فأعاد المدرسة إلى نشاطها السابق وعيّن روكس معلماً فيها لتدريس اللغة العربية وآدابها.

تنقل روكس في مدارس عدة في الأردن وفلسطين وعلم في كلية (ترا سانطه) أي الأرض المقدسة في القدس ثم في عمان وفي كلية الروم الكاثوليك، وكلية راهبات الناصرة، والكلية البطريركية الوطنية، وأمضى في حقل التدريس مدة ستة وخمسين سنة من عام ١٩١٨ إلى ١٩٧٤.

خلال هذه الفترة انكب على المطالعة والبحث وكان أول أديب أعجب به هو أمين الريحاني فقرأ مؤلفاته وقرأ القرآن الكريم وجمهورية أفلاطون، ولزوميات المعري، ورسالة الغفران، وأعجب بجرجي زيدان، وقرأ تاريخ آداب اللغة العربية، وتاريخ التمدن الإسلامي.

تأثر روكس بالإمام علي بن أبي طالب في نهج البلاغة، وبأعمال جبران خليل جبران، وكان تأثره بالغاً بالأب انستاس ماري الكرملي الذي علمه الصبر على التحقيق، وأشركه في تحقيق ثلاثة كتب الأول (نخب الذخائر في أحوال الجواهر) لابن الأكفاني والثاني (بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى فلك اليمن من ملك وإمام) للقاضي حسين بن أحمد العرشي، والثالث (النقود العربية وعلم النميات) ونشرت الكتب الثلاثة في القاهرة عام ١٩٣٩.

وفي عام ١٩٢٨ ألقى محاضرة في مدينة السلط بعنوان (أسرار نكبة البرامكة) وألقى بعدها محاضرات في الجمعيات والنوادي الثقافية.

وضع العزيزي مجموعة من المؤلفات القيمة، وصرف جهده الكبير في البحث في أدب البادية الأردنية وعادات شعوبها وأنجز كتابه الموسوعي (قاموس العادات اللهجات والأوابد الأردنية) في ثلاثة أجزاء وصدر ضمن منشورات دائرة الثقافة والفنون بعمان سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ تناول فيه مشكلة اللهجات العربية القديمة والحديثة والأسلوب الواجب اتباعه لتقريب بعضها من بعض، ولاقى هذا القاموس رواجاً منقطع النظير وتأييداً من مجمع اللغة العربية بالقاهرة وتلقى رسالة من رئيس المجمع الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور جاء فيها:

((قاموسك ثمرة جهد طويل وعمل دائب وهو يواجه ناحية ما أحوجها إلى البحث والتسجيل في مختلف البلاد العربية وفي دراسة لهجاتها المعاصرة من يعين على تقريب بعضها من بعض والصعود بها إلى مستوى الفصحى)).

وأعتمد قاموسه في جامعة (يوتا) الأميركية وفي جامعة (باث) في بريطانيا وفي جامعة السربون في فرنسا.

ثم وضع العزيزي كتابه الموسوعي الثاني (معلمة التراث الأردني) في خمسة أجزاء تناول فيه التراث الأردني من جميع النواحي، ونشرته وزارة الثقافة والشباب في عمان ١٩٨١ - ١٩٨٣.

أما تسمية (معلمه) فذلك اعترافا بفضل الأب انستاس ماري الكرملي صاحب هذا الاصطلاح.

تناول في الجزء الأول الأمثال والحكم، وفي الثاني الأسحار والحكايات والألغاز، وفي الثالث العادات والتقاليد، وفي الرابع الشعر الشعبي وتطوره واثره في القبائل، وفي الخامس اللغة والقواعد ومحاولة رد الألفاظ العامية إلى الفصيح والكنايات، وذكر في المقدمة عن أهمية دراسة التراث وكيف ينبغي أن يدرس ويصنف، وقد اختار كلمة (التراث) بدلاً من اصطلاح (الفولكلور) لأنها أشمل وأصدق دلالة.

المناصب التي تولاها في الهيئات العلمية والثقافية والاجتماعية

- أنتخب ممثلا للرابطة الدولية لحقوق الإنسان في الأردن سنة ١٩٥٦.

- وعضواً لمجلس الأبحاث الأتنولوجية في باريس.
- وعضواً في رابطة الأدب الحديث في القاهرة.
- وعضو شرف في النادي الأدبي في جدة.
- وعضواً في مجمع اللغة العربية الأردني.
- وعضواً في المجلس الوطني الاستشاري في دورته الثانية.
- وعضواً في مجلس أبناء المكتبة العامة في عمان.
- وعضواً في المجلس الأعلى للإذاعة الأردنية الهاشمية.
- وعضواً في مجلس التقارب الإسلامي المسيحي في القدس.
- وعضواً في جمعية رعاية السجناء في عمان.
- وعضواً في جمعية الصداقة الأردنية السوفيتية في عمان.
- ورئيساً لرابطة الكتاب الأردنيين سنة ١٩٧٦.
- ومثل الأردن في مؤتمر حقوق الإنسان وفي مؤتمرات أدبية عدة.

الجوائز والأوسمة التي نالها

* منح شهادة يوبيل جلالة الحسين الفضي التكريمية في الأدب في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٧٧.
* منح وسام التربية والتعليم
* نال جائزة الدراسة والبحوث.
* نال وثيقة التقدير الذهبية من القاهرة تقديراً لأعماله الأدبية وبحوثه المتميزة في ١٤/١٠/١٩٨٢.

وافته المنية بتاريخ ٢١/١٢/٢٠٠٤ في عمان.

لقد أغنى العزيزي المكتبة العربية بمؤلفاته القيمة التي جاوزت الستين كتاباً في الأدب والتراجم والسير والتاريخ والقصص واللغة والأبحاث والخواطر والتحقيقات والمعاجم، ويعد رائداً من رواد التجديد وظاهرة موسوعية وطاقة أدبية هائلة تحتاج إلى الدراسات الواسعة والتحليل وستبقى أعماله مرجعاً هاماً وخصباً للباحثين والمهتمين والدارسين على مر الزمن.

من مؤلفاته المطبوعة

١- المنهل في تاريخ الأدب العربي (في ثلاثة أجزاء) ١٩٤٦.
٢- سدنة التراث القومي - سيرة الأب ماري انستاس الكرملي ١٩٤٧.
٣- الزنابق (في سبعة أجزاء) مختارات من الشعر والنثر ١٩٥٠.
٤- أزاهير الصحراء ١٩٥٤.
٥- شاعر الإنسانية أحمد زكي أبو شادي ١٩٥٥.
٦- الأردن في التاريخ ١٩٥٥.
٧- الخلافة التاريخية (في ثلاثة أجزاء) ١٩٥٦.
٨- فريسه أبي ماضي (دراسة في أدب البادية) ١٩٥٦.
٩- مأدبا وضواحيها بالاشتراك مع الأب جورج سابا ١٩٦١.
١٠- الإمام علي أسد الإسلام وقديسه ١٩٦٧.
١١- قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية (في ثلاثة أجزاء) ١٩٧٣ - ١٩٧٤.
١٢- معلمة للتراث الأردني (في خمسة أجزاء) ١٩٨١ - ١٩٨٣.
١٣- جمد الدمع (في رثاء زوجته) ١٩٨١.
١٤- نمر العدوان شاعر الحب والوفاء ١٩٩٧.




زيـــارة..

شعر: أ. جابر خير بك

مــــرّت علــــى كوخــــي وزارتْ مربعــــي
حــــسناءُ تــــرفل بالجمــــال الأرفــــع

وتبــــسمت تــــيهاً كــــأن عــــيونَها
لهفْــــى تفــــتِّش عــــن فــــؤادٍ طَــــيّع

فــــسألتُ زائرتــــي الجمــــيلةَ هــــل أنــــا
مَــــنْ تقــــصدين؟ وأرجــــو أن لا ترجعــــي

أم ضــــيعتْ شــــمس الــــزمان طــــريقها
فــــي غفلــــةٍ، وأتــــت لغيــــر الموضــــع

فــــرنت إلــــيَّ بعــــزةٍ وتكبــــرٍ
وبــــدت كــــبدرٍ كامــــلٍ فــــي المطلــــع

خــــبأتُ نفــــسي خلــــف ضــــعف مــــشاعري
ولعــــنتُ فــــي ســــري غــــباءَ تــــسرّعي

قالــــتْ وقــــد غمــــر الحــــياءُ خــــدودها
فــــتوردتْ فــــي ألــــف لــــونٍ أروع

أنــــا مــــا أضــــعتُ الــــدربَ لكــــن ســــاقني
شــــوقي لــــرؤية مــــن يعــــيش بمخدعــــي

كــــل الــــدواوين التــــي أصــــدرتها
جمَعْــــتُها وتعــــيش فــــي بيتــــي معــــي







خـــبأتُها حرِصـــاً وتحـــت وســـادتي

ليقـــرّ جفنـــي إذْ تلامـــسُ إصـــبعي

فلقـــد قـــرأت ملاحمـــاً وقـــصائداً

فـــيها مـــن الأدب الـــرفيع المـــبدع

ســـحرتني أوزان البـــيان وشّـــدني

حلـــوُ الكـــلام وألـــفُ بـــيت ممـــتع

فأتـــيتُ أحمـــل صـــورةً عـــن شـــاعرٍ

رســـم القوافـــي كالـــنجوم الطُلّـــع

وحلمـــتُ أن أحظـــى بـــوعدٍ ســـاحرٍ

أصـــفى وأنقـــى مـــن زلال المنـــبع

* * *

ســـكتت وغـــضّت طـــرفَها وتمايلـــت

خجلـــى بتمـــتمة تلامـــس مـــسمعي

فـــتعلق القلـــب الظمـــيُّ بحـــسنها

وتـــسارع الخفقـــان خلـــف الأضـــلعِ

وصـــحوتُ مـــن حلـــم يـــراود مقلتـــي

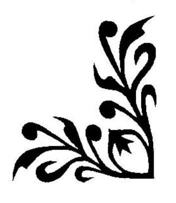
لـــيعبّ مـــن هـــذا الجمـــال تطلعـــي

خاطبـــتها والـــشوق يـــنهش فـــي دمـــي

ويغـــور فـــي صـــدري كطعـــنةِ مبـــضع

يـــا حلوتـــي أهـــلاً بمـــن جـــاءت إلـــى

كوخـــي وزارت كالكـــواكب مهجعـــي

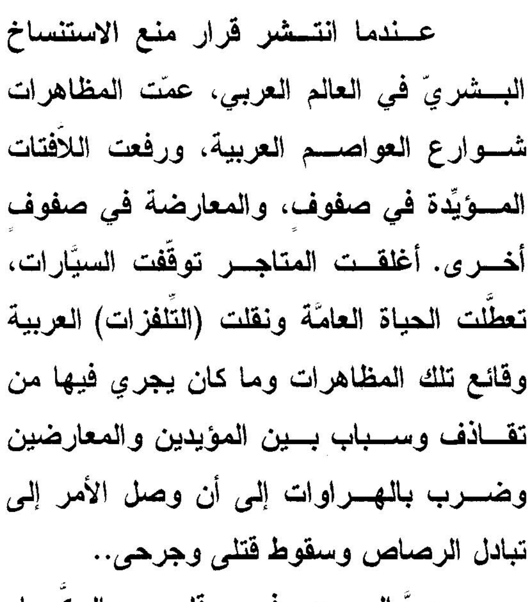



أنـــا لا أقـــول الـــشعرَ إلاَّ عـــندما
أحظـــى بفاتـــنةٍ وجـــيدٍ أتلـــع
فتـــثور فـــي قلمـــي الوفـــي عواطفـــي
ويـــصبُّها فـــوق الـــصحائف مدمعـــي

*　　　*　　　*

شـــكراً لزائرتـــي وألـــف تحـــيةٍ
مـــن صـــادقٍ بالحـــبِّ لا مـــن مدعـــي
عـــودي فإنـــي يـــا جمـــيلةُ حـــالمٌ
بـــزيارةٍ أخـــرى لهـــذا الموقـــع
أو لوّحـــي ببـــنانٍ كفـــك مـــرةً
أســـعى إلـــيك ولـــو بـــذلك مـــصرعي
وإذا أتـــيتِ وجـــدتِ قلـــباً حارســـاً
صـــادي الجـــوانحِ عـــند بـــابٍ مُـــشرع
ردتْ علـــيَّ ببـــسمتين وغـــادرتْ
عجلـــى. وغابـــت كالـــسراب بـــبلقعِ
تـــركت علـــى الكرســـيِّ شـــالاً أخـــضراً
يغـــتال باصـــرتي ويقلـــق مـــضجعي
فـــضممته وشـــممتُ عطـــراً رائعـــاً
مـــازال يعـــصف بالفـــؤاد المولـــع
وطـــويتُ أحزانـــي وعـــدتُ كمـــا أنـــا
بـــين الدفاتـــر لا أحـــسُ ولا أعـــي



قصة

استنساخ

بقلم الأستاذة:
عبير كامل إسماعيل

عـندما انتـشر قرار منع الاستنساخ البـشريّ في العالم العربي، عمّت المظاهرات شـوارع العواصـم العربية، ورفعت اللافتات المـؤيّدة في صفوف، والمعارضة في صفوف أخـرى. أغلقـت المتاجـر توقّفت السيّارات، تعطّلت الحياة العامّة ونقلت (التّلفزات) العربية وقائع تلك المظاهرات وما كان يجري فيها من تقـاذف وسـباب بـين المؤيدين والمعارضين وضـرب بالهـراوات إلى أن وصل الأمر إلى تبادل الرصاص وسقوط قتلى وجرحى..

دبّ الـرعب فـي قلـوب الحكّـام والمـسؤولين، فلـيس من عادة هذه الجماهير المحتشدة أن تقوم بكلّ تلك الفوضى، في أسوأ الحالات كانت تصدر بياناتٍ تشجب وتستنكر أو تثنّي أو تبارك، فأيّ هولٍ هذا؟

تضرّر الجميع جرّاء ما حدث، التجّار، المـزارعون، سائقو السيّارات، العمّال، لم يكن ثمة من فرح إلاّ أصحاب العربات، فقد اجتمعوا فـي أمـاكن التّظاهـر ليبيعوا الحمّص والفول والـذّرة والعصير، استبشروا بالفرج المفاجئ ودعـوا الله أن تستمر هذه الحالة طويلاً، فأخذ كلّ بائعٍ يشجع الفريق الذي يبيعه، ويحثه على الثّبات والتمسّك بالمبادئ وعدم الخيانة..

وكـذلك العـشاق وجـدوا فـي هذه المظاهـرات مـنفذاً للقـاءاتٍ طويلة دون أن تطـالهم ألـسنة السّوء، فاختار معظم الشبان أمـاكن تواجد فتياتهم، ونقلت إحدى الكاميرات بالـصّدفة صورة للافتة قماشية مقلوبة يحملها

شـــاب عيناه تسبحان في فضاء أنثويٍّ لا يمتُّ لما حوله بصلةٍ..

استمرت هــذه الحالة شهراً كاملاً.. اجــتمع خلالــه المسؤولون مرّات عدّة إلى أن توصلوا إلى حلٍّ وجدوه مناسباً..

جمعوا ممثلين عن كلّ فريقٍ ليستمعوا إلى وجهات نظرهم ويخرجوا بقرارٍ أخير يهدئ الأوضاع المتوترة ويعيد الحياة إلى طبيعتها..

عقدت الجلسة الأولى لهؤلاء الممثلين حول طاولةٍ مستديرةٍ وما إن ابتدأت حتى صاح ممــثّل عــن فــريق المــؤيدين لقــرار مــنع الاستنساخ:

- لا أدري علــى ماذا تعترضون، إنه القــرار الوحــيد الصَّحيح الذي يتخذ في بلادنا منذ زمنٍ طويل.. أتريدون أن تشاركوا الله في الخلــق؟ أيــة بدعة هذه؟ ثم ألا يكفينا التضخم الــسكاني الــذي نعاني منه حتى نستنسخ من يشاركنا طعامنا وطعام أبنائنا..

قاطعه ممثلٌ عن فريق المعترضين:

- أيهــا الجهلــة ألا تعلمون أن قرار المنع هذا مخطط صهيوني إمبريالي ضد أبناء جلدتنا.

اتّــسعت العيون دهشة وسرت همهمة بــين المجتمعــين فأكمل حديثه وهو يحسُّ أنَّه يمسك بزمام الموقف:

- نعم كما أقول لكم، مخطط صهيوني، أولاً: إنهــم يتهمونــنا بالتخلف وعدم مجارات تطورات الحياة، ونحن بقرار الرفض هذا نثبت التهمة على أنفسنا، وثانياً: لا يريدون أن نقوم بأيّ عملية استنساخ لأنهم قرأوا تاريخنا جيداً، ويعلمــون كــم نمــتلك من شخصيات عظيمة يخافون أن نعيد إحداها إليهم فتكون صفعة لهم ولمخططــاتهم، وهــا أنتم تساعدونهم دون أن تــشعروا، فمــن مــنّا هــو الخائن؟ إذا قرّروا استنــساخ هتلــر أو نيــرون فمن سيقف في وجهه؟ ألا نريد أحد رجالنا العظام..؟

بــدت القناعة تظهر على الوجوه شيئاً فشيئاً، وغدا عدد الذين صمّوا آذانهم وتشبثوا بــرأيهم يقــلّ، وتحيّر البعض، كيف لم يخطر على بالهم مثل هذا الخاطر..؟

أخيــراً وبعــد مــداولات كثيــرة اتفق الجمــيع على المبدأ، ثم بدأت المشاورات حول الشخصية المراد استنساخها..

اقتــرح أحــد المجتمعــين امرأ القيس الشاعر الجاهلي، فهبَّ مُلتَحٍ صارخاً:

- هــذا الفاسق الماجن، لم تسلم منه إمرأة، أية فائدة نجنيها من وجوده معنا..

فاقترح آخر:

- لــمَ لا يكــون ابــن رشــد العــالم والفيلسوف العظيم..

زعق الرجل الجالس قبالته:

- الفلــسفة من الزندقة.. لا حاجة لنا بمثله في وقتنا الحاضر.

قال آخر:

- ليكن عبد الملك بن مروان..

احتجّ رجل على يساره:

- ولمــاذا يكون من بني أمية؟ لم يكن أجــدادنا مجمعين على موالاتهم، لماذا لا يكون من الفئات المعارضة لهم؟

أجابه المقترح:

- ومــن أعظــم مــنهم؟ لقــد بلغوا بحضارتنا ذروتها.

وكــاد النقاش ينتهي بالضرب، لولا أن أوقفهم رجل مسنّ قال بصوت زاجر:

- فلنختــر رجلاً صلباً، حكيماً وقائداً، بغــض النظــر عن انتمائه المهم أن يفيدنا في معركتنا ضدّ هؤلاء الفرنجة الجدد..

ثنّــى رجــل علــى هذا القول واقترح الأحــنف بــن قــيس، فهو (إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيفٍ لا يسألونه فيم غضب) لرجاحة عقله وحنكته وذكائه..

اعترض آخر:

- كــان قبيح المنظر، تتفاداه الأبصار، وهــذا سيعطي الغرب صورةً سيئة عن أشكالنا فيجعلونه مادّة كاريكاتيرية.

أخذت الاقتراحات تتوالى، بعضهم يؤيد والآخــر يعــارض وكــاد المجلس ينفضّ عن مذبحــةٍ بعــد أن ارتفعــت الخناجر، وأشهرت المسدسات.. على أن انبعثت صيحة طغت على الضجة وأخرست المتصايحين:

- ما رأيكم بالمعتصم؟

هــدت القاعــة شــيئاً فــشيئاً، وأخذ المؤتمــرون ينظــرون إلــى بعضهم، وسرت همسات هنا وهناك.

- عباسي!!!

- أمّه تركية!!!

احــتال صــاحب الــصّوت لإقــناع الحاضرين مذكراً:

- ألا يكفــي أنــه لبّى صرخة عربية اســتنجدت به؟ ألا يكفي أنّه جنّد جيشاً ليحرر امــرأة صــاحت: وا معتصماه..؟! ألا يكفي أن نداءً صغيراً لامس أذنه وقلبه فهبّ للجهاد؟!

مــرّة ثانــية بدت علائم الارتياح على وجــوه بعض الحضور، وعدم الرّضى المكتوم على وجوه الآخرين، وهمس رجلٌ لصاحبه:

- ليتــنا قــرأنا تــاريخ المعتصم جيداً لنعرف ماذا ارتكب من معاصٍ.

لكنّ الجميع كانوا قد وصلوا إلى اتفاق شبه كلّي يؤيّد فكرةَ استنساخ المعتصم..

بعــد ســنين من الاجتماع الحافل، عاد فــريق الأطــباء العربيّ الذيّ سافر إلى الغرب لإجــراء عملــية الاستنساخ بعد أن رفضت كلّ الدّول العربيّة أن تُجري العملية على أرضها..

كــان بــصحبتهم رجلٌ ذو هيبة وقامة فارعــة، ووجــه بــشوش، عليه حلّة الإمارة وعباءة الخلافة.. إنه المعتصم..

نــزل الفــريق في مطار إحدى الدّول العربية، نظر المفتش إلى هيئة الرجل الغريبة، طلب هويته الشخصية، ثم أخذ يتفحصه وينقل بــصره بيــنه وبين الهوية وهو يقرأ البيانات بنبرة اتهامية.

- الاسم: المعتصم.

- الأب: هارون الرشيد.

- الأم: ماردة التركية.

- العلامات الفارقة: أذنان مرهفتا السَّمع تستطيعان سماع استغاثة الملهوف على بعد مئات الأميال..

بدا عدم الارتياح على المفتش، أخذ الأوراق وعاد بعد ساعات مع الرد بعدم الموافقة على الدخول، فهذا الشخص مشكوك بأمره، ويعتقد أنه ماركسي يريد بأذنيه أن يلبي دعوات الثورة والتمرد..

وبين دهشةٍ واستنكار استقل الفريق طيارةً أخرى ونزلوا في مطارٍ عربيٍّ آخر، وبعد إجراءات تفتيش مماثلة جاء الرد بعدم الموافقة على الدخول أما السّبب: فهو أن هذا الشخص يعتقد أنه إرهابي يراد به تنفيذ عمليات تخلّ بالأمن العام.

انتقل الفريق إلى مطار ثالث وقوبلوا أيضا بعدم الموافقة:

فهذا الرجل ينتمي لنظام ملكي والبلد نظامه جمهوري، واستمرت به الحالة أياماً وأيام وهم ينتقلون بين المطارات والموانئ العربية والمعتصم حائر، وهو يسمع أنّه في مرةٍ جاسوس، وفي مرة أخرى تاجر مخدرات، وفي ثالثة: معارض سياسيّ، وفي رابعة: لاجئ..

فصرخ بأصحابه وهو مذهول أمام سيول المصطلحات التي ما فهم لها معنىً:

- لا أريد أن أسمع شيئاً بعد الآن.. لكأنّي لست عربياً أو لكأنكم لستم عرباً..

نظر الأطباء إلى بعضهم متحيرين.. قال أحدهم موقناً:

- أعتقد أنّ المشكلة تكمن في أذنيه.. الجميع خائفون منها، علينا أن نتصرف قبل أن يطالبنا أخواله الأتراك به.

هزّ الجميع رؤوسهم مؤمّنين على ما قاله وابتسموا كأنهم يبيّتون أمراً..

بعد أسابيع عاد الفريق بعد رحلةٍ قام بها إلى الغرب لإجراء التعديلات المناسبة على شخصية المعتصم عند نزولهم في المطار. قرأ المفتش بياناته:

- الاسم: المعتصم.

- الأب: هارون الرشيد.

- الأم: ماردة التركية.

- العلامات الفارقة: أصم..

منذ ذلك اليوم وفريق العلماء يجول أنحاء البلاد العربية ليطلّ على النّاس من الشّرفات برفقة المعتصم..

وبينما النّاس المستبشرون، المسحوقون، الآملون، ينادون بأصوات مستنجدة باكية:

- وا معتصماه.. وا معتصماه..

كان المعتصم ينظر إلى حركة أيديهم وأفواههم فيبتسم كالأبله، ويردّ عليهم:

- شكراً.. شكراً على حبّكم لي.. شكراً على هذه الاستقبالات الحافلة....





سلاني..

شعر: حسان الصاري

سلاني واستراح من العتاب
وخلَّفني على جمر العذاب

ولم يترك لديَّ سوى كتاب
سفحتُ على صحائفه شبابي

عذابي يبتدي من يوم قالت
رحيلي عنكَ خاتمةُ الكتاب

سأرحل عنكَ قالتها وألقت
بوجهي ما تجمَّعٍ من رغابي

وسارت والعبير يذيع سراً
تناثر من ذوائبها الرِّطاب

حنوتُ عليه بالأهداب حتى
تغلغل بين طيَّات الثياب

سأخفيه وإن قالوا سيفنى
كما تفنى الزهورُ من الهضاب

وأسقيه بماء العين دمعاً
أحنَّ عليه من ماء السحاب

سلاني كيف؟ والماضي مقيمٌ
يرفُّ عليَّ بالألق المُذاب

تمازج في دمي وانساب نسغاً
سيبقى في الضلوع إلى الحساب

شفيعي عندها خفقاتُ قلب
عنيدٌ كلما ذُكرت يحابي

له في حبها رأيٌ.. عجيبٌ
يصافيها ولا يدري بما بي

ويتركني ألَمْلم.. ما تبقّى
من الأحلام في عهد التصابي






بقلم:
أحمد سعيد هواش

الأطباءُ الشعراءُ كثرٌ في أدبنا العربي، ولشعرهم ميزة خاصة مضمخة بنفحات القلب المفعم بالحب والخير والجمال.. وكانت ولا زالت عينية ابن سيناء الطبيب العربي الفيلسوف الشاعر آية في الإبداع الشعري.. وقد عارضها عديدون من الشعراء العرب المعاصرين، ولم يصلوا لمستواها في المعنى والمبنى.

ومن الشعراء الأطباء العرب المعاصرين المشهورين، الدكتور إبراهيم ناجي في مصر، ومن لبنان الدكتور نقولا فياض الذي فاض قلبه حباً بالرسول العربي الكريم محمد ﷺ، وفي القطر العربي السوري، كان الدكتور الحموي وجيه البارودي الملقب بـ (سيد العشاق) ومن الأردن الشاعر الدكتور عبد المنعم الرفاعي.. وغيرهم.

ومنذ أشهر قليلة مضت وقفت على ترجمة لطبيب شاعر، لم أسمع به من قبل (جلال الدين الدهان) وفتشت عن آثاره الشعرية، فوجدت: (رباعيات جلال الدهان)، و(ديوان جلال الدهان)، وقد تميز هذان الأثران الشعريان بالمضمون الشعري الرائع، والإخراج الممتاز، وقد نسخا بخط فنان ماهر؛ وفاضت فيها قريحة شاعر مبدع غمس ريشته بدم قلبه المفعم بالحب والشاعرية.

وعجبت ألا يكون مثل هذا الإنسان ملء العين والبصر، يذكر أسمه ويقرأ شعره في منتدياتنا الأدبية، وفي الأمسيات الشعرية، وأن يُكرَّمَ من نقابة الأطباء، واتحاد الكتاب العرب، وغيرهما من المؤسسات الثقافية المناط بها تكريم المبدعين في حقلي الاختصاص المهني، والشعري؟!.

وقد أهدى الشاعر الطبيب جلال الدين الدهان رباعياته إلى ذلك المخلوق العجيب، إلى الإنسان، فقال مخاطبا إياه:

وصلتَ النجومَ نزلتَ القمرْ
درسْتَ العلومَ حفظْتَ السيَرْ
ومازلْتَ غرّاً تناسى العبر
وأنَّ الهلاكَ قصيرُ البشرْ

فهو يشيرُ إلى نهاية الإنسان المحتومة مهما ارتقى ووصل بفضل العلوم الكونية، متناسياً العبر والدروس التي اكتسبها من حياته على وجه هذا الكون.

ولعل الطبيب الشاعر جلال الدين الدهان استفاد من دراسته المتعمقة للعلوم الطبيعية واختصاصه (الجراحة) من أرقى جامعات أوربا وأميركا، فعرف قدرة الخالق تعالى في مخلوقاته، فأهدى رباعيته الثانية إلى الكمال والحب المطلق.. إليك يا خالقي فقال:

مَنْ علّمَ الشحرور تغريد السَّحرْ
منْ نمنم الدنيا بألوان الزّهرْ
منْ فجّرَ الأنهار منْ ماء المطرْ
قدْ أنْزلَ الأديانَ هدْياً للبشر

وفي الإنسان، الذي كوّنه الله في أحسن تقويم، فتجاهل الإنسان ذلك الإبداع:
﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة: التين].

فقال شاعرنا:

يا منْ جعلتَ من النُّطفة موْلدي
يا منْ وهبْتَ لنا الرَّشاد لنهتدي
أعطيتنا ورقاً وتبراً في اليَد
فتجاهل الإنسانُ حيناً في الغد

وقدْ قسّم الشاعر جلال الدين الدهان ديوانه (ديوان جلال الدهان) إلى خمسة أبواب: في الغزل، في الوصف، قوميات، في الرثاء، والباب الخامس تأملات.

وقد أُفتُتح الديوان بكلمة (استهلال) كتبتها زوجة الشاعر السيدة أميمة، عبرّت فيها عن حبها ووفائها لزوجها الطبيب الشاعر المبدع الراحل جلال الدهان، كما أهدى الشاعر ديوانه إلى زوجته أميمة، رفيقة حياته وملهمة إبداعاته هذه.

وقد ضم الباب الأول - الغزل - ثمانية عشرة قصيدة تنعش النفس لما حوته من صدق وعفوية وعفة تكاد تلامس شغاف القلب منها: الفراشة، عيونك، حنين، عتاب، ظالمة الحسن.. فنقرأ من القصيدة الأخيرة، غيرة الجمال المتمثل بالحبيبة وغيرة الورد المتمثل بزهور الروض من ياسمين وغيره، ونقرأ مفردات الجمال في الأنثى الحبيبة والطبيعة المتمثلة بالزهور المتنوعة فكلتاهما تمثلان الجمال في أسمى معانيه وشخوصه: الورد برعم الصدر، الغيرة بياض الياسمين، الجيد اللجيني والنحر فقال:

أراكِ قتلت الوردَ كيداً بوجنة
فصبَّ دماء الطهر في برعم الصدر
ولم أكُ أدري أنَّ في الورد غيرةً
وأن زهورَ الروض تذْوي من القهر
وكلّ بيّاضِ الياسمين سكبتيه
على صفحة الجيدِ اللجيني والنَّحْرِ

واختصاراً سنجتاز بعض أبواب الديوان، فنقرأ في الباب الثالث قوميات (دمشق العرب) فقد اجتمع بهذه القصيدة عراقة دمشق عبر التاريخ، فهي حاضرة الأمويين، وعاصمة سورية الصامدة على مدى العصور، وموهبة الشاعر الدهان الشعرية المتأججة بحب عروس قاسيون، مظهراً عروبة دمشق ومكانتها لدى أخواتها من العواصم للدول العربية الشقيقة، أنها درة التاريخ، التي جمعتْ بين شموخ الماضي وجلاله، وصمود الحاضر وتوهجه،

إنهـا الملكة الجالسة على سفح قاسيون ومن يميـنها ويـسارها الخـضرة والجمال والماء الـزلال المتمـثل بالغوطتـين وبردى المعطاء فقال:

يـا وردة فـي جبين الدهر يا بلدي
لـم يخلق الدهرُ يوماً ما يضاهيها
هـنا الخمائـل سكرى في أزهارها
والطيـرُ ترقصُ نشوى في مغانيها

إلـى أن قـال مـشيراً إلـى ماضيها المجـيد، وتاريخها الأثيل، وصمودها في وجه أعدائها:

فـيها أمـية قـد عاشتْ مفاخرها
وأطلقـت أكـف الأيـام تحلـيها
فكـم لُـيوث تـبارتْ وهي باسمةٌ
يـومَ الجهـاد فأفنت منْ يعاديها
حتـى غـدت كالطـودِ شـامخةً
المجـدُ يخـتال فخراً في أعاليها

وتظهر عاطفة الشاعر الوطنية الحارة نحـو عاصـمة العـروبة (دمشق)، فهي الأم الحـنون، وهـي رمـز الأسمى حب، ودمشق تستحق منا جميعاً التضحية والفداء، إنها رمزُ للـبطولة، التـي يحمـيها الله وسواعد الأبناء البررة فقال:

إنـي ربيـبك يـا فيحاء يا وطني
فـالأم أنـت ومنـي الروحُ تفديها
لا تجزعي من شرار الأرض قاطبة
فـإن أرضـك عـينُ الله تحمـيها

وكـان للمرأة العربية حضورها الآثر منذ فجر التاريخ العربي، فبرزت نساءً عربيات لا زال ذكرهن فخراً للأجيال العربية على مدى العـصور والدهور: الخنساء، أسماء بنت أبي بكر، خولة بنت الأزور وغيرهنّ الكثير الكثير، وقد سارت المرأة العربية المعاصرة على نهج جدتها في تاريخنا القديم، فكانت جميلة بوحيدر فـي الجزائر، وشادية أبي غزالة في فلسطين، وحمـيدة الطاهـر من سورية، وكان من تلكن الـبطلات الـشهيدة سناء محيدلي التي ضربت المـثل الأعلـى في البطولة النسوية في نهاية القرن الماضي، فجعلت من نفسها قنبلة تفجرت فـي وسط جنود وآليات العدو الإسرائيلي في الجنوب اللبناني..

وقـدْ حرّك هذا العمل البطولي الرائع حميمة الشعراء العرب، وفجّر طاقاتهم الشعرية الكامـنة، فانطلقت بأروع قصائد الفخر بالبطلة الـشهيدة (سـناء محيدلـي)، وكان لشاعرنا الطبـيب جلال الدين الدهان قصيدة معبرة عن الـبطلة الشهيدة (سناء محيدلي) أظهر فيها أن سـبل التـضحية والفداء لم ينقطع أبداً، فبقي مستمراً على مدى التاريخ، ولكن رواده شبابا وشـابات فـي عمـر الـورود، قدموا حياتهم رخيـصة فـي سـبيل الوطن والأمة العربية، وهاهـي الـشهيدة (سـناء) تجدد ذكرى من استـشهد قبلها فقال منْ قصيدة سناء محيدلي فـي الـبابِ الـرابع، الرثّاء وسناء لا تحتاج لرثاء، فالرثّاء لنا نحن الأموات الأحياء:

وهــبوا الحــياة رخيصة ما نابهم

ذعــرٌ إذا مـــا احــتدت الهــيجاءُ

فهــمُ الأشاوسُ في ميادين الوغى

ولكــم تـــسابق صـــبية ونـــساءُ

لحمايـــة الأوطـــان مـــن أعـــدائها

خاضوا الغمار وفي النفوس جيلاءُ

لـــبلوغ منـــزلة الـــشهادة والفـــدا

ولهـــم مـــثالٌ يحـــتذى الخنـــساءُ

مـــن أعـــصرٍ فخـــرَتْ بها أترابها

والـــيومُ تـــرجعُ مجـــدهُنَّ ســـناءُ

إنها البطولة المتجددة المتصل نسغها فـــي دوحـــة الأمـــة العـــربية، لتستمر باسقة خضراء معانقة عنان السماء.

وفـــي الباب الخامس، (تأملات)، نقرأ رســـالة شعرية وداعية على لسان طيار عربي استـــشهد وهـــو يدافـــع عن سماء بلاده ضد بواشـــق العدو الإسرائيلي، أرسلها الشهيد إلى زوجـــته، انعكس فيها الدفء والحب الأسري، الـــذي لا يعلو عليه إلاّ حب الوطن والاستشهاد فـــي ســـبيله، فقال الشاعر الدهان من قصيدة (الرسالة الأخيرة) مخاطباً رفيقة عمره:

حبيبتـــي ســـامحيني إنَّـــه قـــدري

بـــأن أكـــون مـــنَ الحُـــرّاس للعلم

وأن أدافـــعَ عنْ قومي وعنْ كذجي

وآلُ صـــهيونَ ما كانوا سوى برمٍ

يُهدّمـــون بـــيوت الأهـــل في بلدي

ويقـــتلونَ ذوي الإيمـــان والكـــرم

ثـــم يضيف الشهيد معركته مع طياري آل صـــهيون، فكـــان الثبات من طيارنا العربي الـــشهيد الـــذي قاتل عن عقيدة وإيمان بواجبه للـــدفاع عن الوطن وأبناء شعبه لذا تميز قتاله بالثـــبات والجرأة والعزيمة على خلاف الطيار المعـــتدي الإسرائيلي لذا لا يحمل سوى الروح العدائـــية لكل ما هو عربي، فقال الشاعر على لسان الطيار العربي البطل:

وفـــي الـــسماء تلاقيـــنا فأرهـــبهم

مني الثباتُ وما في النفس من حدم

وقـــد جعلـــت بمـــثوى الغيم مقبرهِ

لكلِّ منْ شكَّ في بطشي وفي شكمي

ثم يبلغ الطيار العربي زوجته شعورهِ وإحـــساسه بقرب استشهاده في سبيل الوطن، تلـــك الأمنـــية التـــي يتمناها كل إنسان محب لوطـــنه، لينال شرف الشهادة، وما توجبه من عز وسمو ورفعة في الدارين: الدنيا، والآخرة فقال:

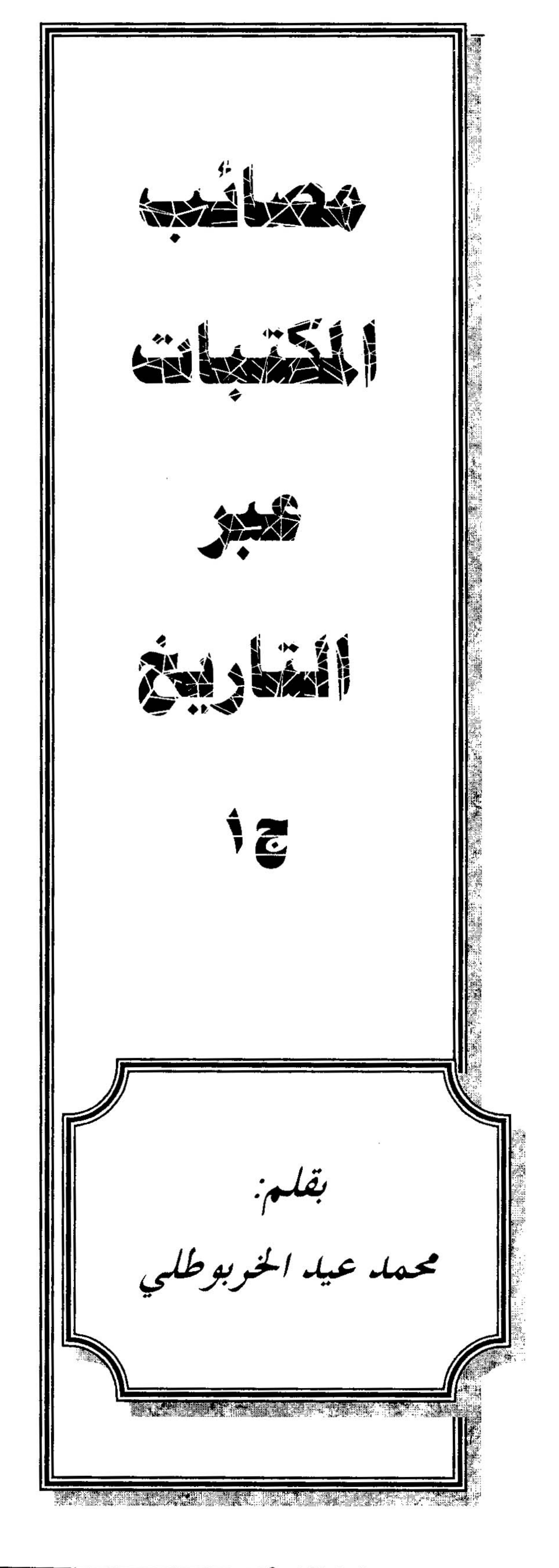
والـــيومَ، يأمنيتـــي، حسٌ يخامرني

بـــأن صـــوتاً يناديـــني مـــن القدمِ

يقـــول لـــي: يا فتى آن الأوانُ لكي

تمـــضي شـــهيداً ولا رفضٌ لمُنحتم

ومـــا أجملهـــا من خاتمة يتلاقى فيها الإبـــداع الـــشعري والـــبطولة وعبق الشهادة، فنـــشمُ رائحـــة الـــدم الزكي المراق في سبيل الـــوطن، دم الـــشهداء الأبـــرار الذين ضحوا بـــأرواحهم لیـــسعد من بعدهم أبناء شعبهم في وطـــن حـــر أبي فألفُ تحية لهم، وتحية لروح الـــشاعر الطبـــيب المـــبدع جلال الدين الدهان حامل اليراع والمبضع.



أبدع أبو الطيب المتنبي حينما وصف الكتاب - بأنه خير جليس في الزمان - فالكتاب قديما كانت له قيمته وأهميته باعتباره القناة الوحيدة لنقل العلم والمعرفة والفنون والثقافة بين الناس.

وهل نتخيل الدنيا دون كتاب وبالأحرى دون ثقافة مطبوعة، وهل نتصور العالم دون حبر المطابع وعطر الحبر، إن ثقافة الكتاب باقية، يقول الجاحظ في فضل الكتاب: نعم الذخيرة والعدة، والمستغل والحرفة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والنزيل، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، يطيل إمتاعك، ويشحذ طباعك.

وكما قيل فيه:

لم يبق شيء من الدنيا تسر به
إلا الدفاتر فيها الشعر والسحر
مات الذين لهم فضل ومكرمة
وفي الدفاتر من إحسانهم أثر

وقد قيل في فضل الكتاب الكثير، وألف في ذلك الكتب والرسائل، وما ذلك إلا لقيمته وعلو قدره وشأنه، ومهما اخرج لنا العلم الحديث من اختراعات واكتشافات سيبقى للكتاب مكانته، وللقلم إبداعه.وأينما يكون العلم لابد أن يكون الكتاب موجودا محترما ومقدرا، ومن دون الكتب أو الكلمة أو الحرف لا وجود للحياة، ففي البدء كانت الكلمة، وواقعنا الذي نعيشه يؤكد أن الحرف مازال سيد الكلمة، وأن الكلمة المكتوبة والمطبوعة مازالت تحتل مكان الصدارة في عقولنا ومكاتبنا ومنازلنا. والقراءة تمنح الإنسان نعمة لا مثيل لها، فهي تنشط الخيال وتفتح مسامه، وتمكن للمرء الذي يقيم مع الكتاب علاقة قوية الإبحار في فضاءات لا شطوط لها وتهيئ له مسرات مغايرة ومفاجآت مبهجة، إن القراءة - خبز الخيال - والذي يخاصم الكتاب ولا يقرأ لن يعيش إلا حياته فقط، ولن تفقد الكلمة المكتوبة سحرها وألقها على مر العصور، وإذا كانت الكتب قد ارتبطت بأماكن العبادة على مدى التاريخ كله، فاحتضنته المعابد الوثنية والأديرة المسيحية والمساجد الإسلامية، واتخذتها الدول الحديثة لنشر مبادئها وفلسفاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية فقد كان لها في ظل الإسلام شأن كبير، والذين يؤرخون للحضارة

الإسلامية يقفون مشدوهين أمام حركة التأليف والترجمة التي امتدت جذورها في القرن الأول الهجري وآتت ثمارها في القرن الثاني الهجري وما تلاه.

لا يخفى أن الكتاب في أي أمة من الأمم مظهر من مظاهرها الحضارية، بل هو أهم تلكم المظاهر وأبعدها أثرا، لأنه الوعاء الذي يضم ثمرات عقول أبنائه وإبداعاتهم في مختلف مناحي الحياة.

وليس الكتاب مجرد كيان عادي، لكنه كائن حي، ومن المؤكد أن حياة البشر قد تأثرت بهذه الوسيلة القديمة والأساسية من وسائل الاتصال الأساسية، ويمكن أن نقول مطمئنين أن حضارات كوكبنا وثقافاته لم تبدأ في الازدهار والانتشار إلا بعد اختراع الكتاب، لأنه وعاء المعرفة والأفكار التي لا توجد ثقافة متقدمة من دونها، من عناصر الألواح الطينية و لفائف البردي إلى مجلدات عصرنا، وعلى حد قول - د. جي ستوري براون - مدير مكتب الشؤون التربوية والثقافية في وكالة المعلومات بالولايات المتحدة الأمريكية فإن (فكرة الثقافة نفسها كانت في نشأتها متصلة بالتعليم عن طريق الكلمة المكتوبة... ولقد أحدث الكتاب - كميراث إنساني عالمي - تغيراً جوهرياً في مفهوم الثقافة، وبعد هذا التغير أحدث سمات الحداثة، ودليلا على وجود الكتب).

واكتشاف الكتابة وتطور أشكالها ورسائلها من أهم الخطوات التي خطاها الإنسان في انتقاله إلى الحياة المدنية، فقد مكنته من تسجيل أفكاره ومشاعره، ومن التعبير عن محيطه ومعيشته، كما مكنته من تدوين المعرفة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة وجعلت التفكير الإنساني كله عملية متصلة ومستمرة تتفاعل فيها الأفكار والثقافة والحضارات في سبيل التقدم وخلق المستقبل الأفضل، ونرى أن الكتاب عكس روح كل حضارة منذ فجر التاريخ، فقد ارتبط مع قدماء المصريين بالفكرة الدينية، ومع الإمبراطورية الرومانية بفكرة التمجيد والعظمة، بينما ارتبط مع الحضارة الإسلامية بالروح العلمية والإنسانية.

اهتمام العرب بالكتاب

أسوق خبراً يعد نموذجا على الاهتمام بالعلم والحرص على الكتاب والمكتبات:

في معرة النعمان كانت مكتبة أبي العلاء المعري عامرة بنفائس الكتب، ووافق أن عالماً من اليمن عنده كتاب في اللغة قد سقط أوله، وأحب اتمامه فكان كلما اجتمع بأديب أراه الكتاب وسأله عنه، فلم يعرفه أحد، حتى وجد من يدله على أبي العلاء، فرحل إليه في المعرة واجتمع به وأخبره بقصة كتابه الناقص وقرأ عليه شيئا منه، فقرأ أبو العلاء من أوله إلى ما هو عند الرجل فأتم نسخته وعاد إلى اليمن، ويقال: إن هذا الكتاب هو ديوان الأدب للفارابي، وهكذا كان اهتمامهم بالكتاب فضحوا بكل شيئ ليحافظوا عليه وليبقى للأجيال اللاحقة معيناً ثرا ينهلون منه، وقيل لبعضهم: ما بلغ من سرورك بكتبك!

فقال: هي إن خلوت لذتي، وإن اهتممت سلوتي، وإن قلت إن زهر البستان، ونور الجنان، يجلوان الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألحاظ، فإن بستان الكتب يجلو العقل ويشحذ الذهن، ويحيي القلب ويقوي القريحة ويعين الطبيعة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويعطي ولا يأخذ، ويفيد ولا يستفيد، و تصل لذته إلى القلب من غير سآمة تدرك ولا مشقة تعرض لك.

و قد صُنف في فضل الكتاب الكتب وقيل فيه القصائد والأشعار وعيون النثر، جاء في كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال أن ابن الحداد الوادي آشي قال في جسنات الكتاب، و هو من شعراء المرية من القرن الخامس الهجري:

ذهب الناس فانفرادي أنيسي
وكتابي محدثي و جليسي
صاحب قد أمنت منه ملالا
واختلالاً وكل خلق بئيس
ليس في نوعه بحي و لكن
يلتقي الحي منه بالرموس

وقال الجاحظ: لا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالا وإبرارا، ولا أقل خلافاً وإجراما، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة، ولا أطيب ثمرة من كتاب.

وقد دخل الرشيد يوما على المأمون وهو ينظر في كتاب، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يشحذ الفكرة ويحسن العشرة، فقال الرشيد: الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه.

والباحث في كتب التراث والتراجم يجد أخبارا عجيبة في حب من سلف للكتاب، ويرى

التضحية العجيبة لأجل المحافظة على كتاب أو الحصول على كتاب، فقد ضحوا بكل شيء وأنفقوا ثرواتهم، وتخلوا عن لذائذ العيش ليتركوا كتبا قيمة، قال يعقوب بن سفيان: رحلت للعلم ثلاثين سنة، وكنت أدمن الكتابة ليلا حتى عميت، فبكيت على نفسي لما فاتني من العلم، وفي سبيل تحصيلهم للعلم صبروا كثيرا حتى أكل بعضهم الحشائش وبعضهم باع ثيابه ولم يتخلوا عن الكتاب والعلم يوما وبعضهم باع خشب سقف بيته ليحصل العلم، فيحيي بن معين خلف له والده أكثر من مليون درهم أنفقها كلها على العلم وتصنيف الكتب، وعند وفاته خلف من الكتب أكثر من مائة حمل. وبلغ من شدة حرصهم على اقتناء الكتاب وفهمه رحلتهم إلى عالم يقرؤون الكتاب عليه فالخطيب التبريزي عندما حصل على نسخة من كتاب - التهذيب - في اللغة للأزهري في عدة مجلدات، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة، دُلَّ على المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحمله على كتفه من تبريز إلى المعرة ماشيا لفقره، فنفذ العرق من ظهره إليها، فأثر فيها البلل، وكانوا كما قال الحاكم النيسابوري: (آثروا قطع المفاوز والقفار، على التنعم في الدمن والأوطار، وتنعموا في البؤس والأسفار، مع مساكن أهل العلم والأخبار، جعلوا غذائهم الكتابة، وسمرهم المعارضة - مقابلة الكتاب الذي كتبوه بالكتاب الذي سمعوه أو نقلوا عنه - واستروحهم المذاكرة).

وقد هجروا النوم ليكتبوا مسألة وليدونوا فائدة، فهذا البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة عدة مرات، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره، وكذلك كان الطبراني الذي نام على الحصير ثلاثين سنة وقد خلف أكثر من خمس وسبعين مؤلف.

بهذه الهمم بنيت المكتبات، ووصلتنا علومهم وآثارهم.

وقد سار الأقدمون في البلاد وصبروا صبر الجماد، وبكروا كبكور الغراب، فصنفوا وجمعوا ودونوا، فهذا مكحول الشامي إمام وفقيه أهل الشام، ولد في كابل وتوفي بدمشق سنة ١١٢ هـ قال: طفت الأرض في طلب العلم، ولم أدع علما في مصر إلا حويته فيما أرى، ثم أتيت العراق ثم المدينة، ثم أتيت الشام فغربلتها.

وهكذا كانوا يطوفون في البلاد شرقا وغربا ليحصلوا العلم وبعد أن يستقروا يدونوا، فجاءت مدوناتهم مرجعا لمن بعدهم، فأبو سعد السمان الرازي وهو شاب عالم جامع يكثر من العلوم، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها على قدميه وسمع من ٣٦٠٠ عالم، وجمع كل ما سمعه وصنفه فترك الكتب الكثيرة، وأبو عبد الله بن منده طاف البلاد وسمع من ١٧٠٠ عالم وعاد بأربعين حملا من الكتب كان قد نسخها عمن سمعها عنه وقال: طفت الشرق والغرب مرتين.

أما ابن المقريء طاف الشرق والغرب أربع مرات وهو يجمع العلم ويدونه قال: مشيت بسبب نسخة المفضل ابن عضالة المصري سبعين مرحلة ولو عرضت على خباز برغيف لم يقبلها، وقال: لقد دخلت بيت المقدس عشر مرات - في طلبه للعلم - وكان مولده باصبهان.

والقاسم بن داوود البغدادي كتب عن ستة آلاف عالم وكذلك فعل أبو النصر السجزي.

وهذا أحمد الحجار علامة حلب توفي ١٢٧٧هـ كان يحب اقتناء الكتب، ومرة باع ثيابه التي كانت عليه ليشتري كتابا، وقد خلف مكتبة عظيمة.

أما بيعهم للكتاب فهذا شيء عظيم عليهم لأنهم كانوا يحافظون عليه كحفاظهم على أرواحهم وأولادهم، ولكن كانت الضرورة أحيانا تجبرهم على بيع كتاب فيخرجونه من مكتباتهم بشق الأنفس وكأن روحهم قد خرجت معه كما حصل مع أبي الحسن الفالي الأديب، فقد ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان، أنه كان يملك نسخة من كتاب - الجمهرة - لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها، فاشتراها الشريف المرتضى بستين دينارا، وتصفحها فإذا بها أبياتا بخط بائعها تقول:

أنست بها عشرين حولا وبعتها
لقد طال وجدي بعدها و حنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها
ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية
صغار عليهم تستحيل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي
مقالة مكوي الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من ربٍّ بهنَّ ضنين

فأرجع النسخة إليه وترك له الدنانير.

أما أبو الحسن الخولاني المعروف بالحداد المهدويّ فقد باع كتبه اضطرارا وفقرا، فسألته زوجته وهي تعرف حبه لكتبه وشدة تعلقه بها: كيف بعت الكتب وهي أعز شيء لديك؟ فقال لها أبياتا ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان وهي:

وقالت وأبدت صفحة
كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي آخـِ
ـر ما يباع من المتاع
فأجبتها ويدي على
كبدي وهمّت بانصداع
لا تعجبي مما رأيت
فنحن في زمن الضياع

وبلغ من شدة حبهم للكتب أن فضلوها على كل شيء، فقد جاء في وفيات الأعيان أن الجرجاني القاضي قال عن موقع الكتاب من نفسه ومن لذاذة حياته:

ما تطعمت لذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء عندي أعز من العلم
فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذل في مخالطة النا
س فدعهم وعش عزيزا رئيسا

أما الزمخشري علامة العربية ورئيس أهل اللسان فيها فقد قال واصفا تلذذه في صحبة كتبه وسهره معهم:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة
أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها
أحلى من الدوكاه والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها
نقري لألقي الرمل عن أوراقي

وقال بعضهم في الكتاب:

لنا جلساء ما نمل حديثهم
ألباء مأمونون غيبا وشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
ورأيا وتأديبا ومجدا وسؤددا

وقاضي مصر ابن لهيعة احترقت كتبه في سنة ١٦٩هـ فاغتم لذلك ومرض.

وبلغ من أمر أبو أيوب الشاذكوني أن فدى كتبه بنفسه لأنها جزء لحمه ودمه وروحه، فقد كان مرة بطريق أصبهان، فنزل المطر ومعه كتب، فلم يجد سقفا يحمي نفسه وكتبه من البلل، فانكب على كتبه يحميها حتى هدأ المطر.

وأبو جعفر القصري المغربي قال: لي أربعون سنة ما جف لي قلم، من كثرة ماينسخ بالليل والنهار وكان ربما باع بعض ثيابه،واشترى بثمنه كتابا أو رقوقا لنسخ كتاب.

وذكر ابن خلكان في وفياته أن ابن الدهان النحوي سيبويه عصره قد أفنى عمره في تحصيل العلوم وجمع الكتب والتصنيف واضطر إلى ترك بغداد وانتقل إلى الموصل ولسوء حظه حصل طوفان أغرق بيته وفيها كتبه وضاعت في الماء، ولما حملوها إليه أشاروا عليه بتبخيرها فبخرها بأكثر من ثلاثين رطلا، فطلع دخان البخار إلى رأسه وعينه فكف بصره.

هذه بعض المصائب التي تصيب الكتب وبعضها احترق – وسنفصل ذلك فيما بعد – وورد عن عمر بن علي الوادي آشي وكان من علماء القرن التاسع الهجري وعرف بابن الملقن أن مؤلفاته بلغت مائة مصنف وكان عنده من الكتب مالا يحصى ولكنها احترقت فاختل عقله على ما ذكره السخاوي.

وقال بعضهم في قيمة الكتاب:

هذا كتاب لو يباع بوزنه
ذهبا لكان البائع المغبونا

أمـــا مـــن الخـــسران أنـــك آخـــذ

ذهـــبا وتتـــرك جوهـــرا مكـــنونا

وجـاء في محاضرات الأدباء ومحاورات الـشعراء والبلغاء للأصبهاني أن بعضهم قال في الكتاب معبراً عن شدة لصوقه به:

لـصيق فـؤادي مـنذ عـشرين حجـة

وصـديق ذهنـي والمفـرج عـن همي

يعـز علـى مثلـي إعـارة مـثله

وآليـته أن لا يفـارقـه كمـي

الاهتمام بإنشاء المكتبات

أثـبت التاريخ القديم المكتشف أن بعض الحـضارات القديمـة اهـتمت منذ القديم بإنشاء المكتبات ويذكـر د.علي القيم في مجلة المعرفة العدد ٤٨٩ أن الآثار التي اكتشفت في إمبراطورية إبـلا تدل على تاريخها العظيم في المشرق القديم وكانت مساوية لحضارتي وادي النيل وبلاد ما بين النهـرين وكـان فيها مكتبة عظيمة قد عُثر عليها عـام ١٩٧٥م ضـمت نحو /١٦/ ألف رقيم طيني مـسماري تعـود للألف الثالثة قبل الميلاد، وتعد أرشـيفا ملكيا، وتشكل أقدم وأضخم مكتبة وثائقية فـي تـاريخ البـشرية، وضمت الموسوعات التي حوت معلومات أساسية من معرفة ونبات وحيوان وجغرافية ووثائق سياسية ومعاهدات سلمية وغير ذلـك عدا أنها تعد أقدم نصوص أدبية معروفة في بـلاد الـشام. وهذا دليل على أن منطقتنا أول من عرف المكتبات قديما، وهذه المكتبات تعرفنا بثقافة ذلك العصر وتلك المنطقة فتعد كنزا نادراً.

لكـن العـرب في الجاهلية لم يدونوا في الـسجلات والصحائف شيئا من مآثرهم وعلومهم وآدابهـم، وقـد يكون سبب ذلك أن الخط العربي الـذي انتقل إليهم من الأنبار لم يكن معروفا لديهم بعـد، ولكـن على الرغم من كل هذا، فإنهم كانوا أسـرع من غيرهم من الأمم القريبة والبعيدة إلى الكتابة والتدوين خاصة بعد ظهور الإسلام، وأثبت الـتاريخ أن أول خـزانة كتب عربية في الإسلام أنـشئت في دمشق من قبل خالد بن يزيد الأموي، وكانـت عامـرة بكـتب عديدة نقلت عن القبطية واليونانـية والـسريانية، وأكثرها تبحث في الطب والكيمياء والهندسة والفلك والفلسفة وتاريخ سير ملـوك الـيمن خاصة، والقبائل التي عاشت على أرضـها وأخـبارهم ومخلفـاتهم من شعر وعلوم وآداب.

وكثير من الخلفاء الأمويين اعتنوا بجمع الكـتب فأنـشأوا المكاتـب وأنفقوا عليها الأموال الطائلـة ووقفوا لها الأوقاف الكثيرة، فانصب أهل دمـشق علـى العلـم فأفلحوا ونبغ منهم العلماء الأعـلام مـن الـذين بقيت آثارهم إلى يومنا هذا ترفدنا بالعلم والمعرفة.

وفـي بغـداد جُمعت الكتب بعهد المأمون العباسي، ووضعت في خزائن ضمن عمارة عظيمة أطلقوا عليها اسم - دار الحكمة - وقد تحولت بعد إلـى نـاد أو مجمع علمي كان يجتمع فيه العلماء والباحثونً والأدباء لعرض الآراء وللتزود بالعلوم والآداب والفـنون، وبقـيت الدار عامرة ومزدهرة طوال القرنين الرابع والخامس الهجري.

وفي مطلع القرن السادس الهجري بنى العباسيون مكتـبة بالكرخ في بغداد أطلقوا عليها اسم - دار العلـم - فكانت أكثر اتساعاً وأرحب مكانا، وبقيت عامـرة ومزدهـرة حتـى وقت تدميرها وإتلاف محتوياتها من الكتب من قبل هولاكو وما أحرق لا يحصى كثرة ولا يُقوَّم نفاسة، وكذلك مكتبة سابور بن أرديشر في محلة بين السورين في الكرخ التي أسسها ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف كـتاب مجلـد، لكنها أحرقت عند دخول السلاجقة ٤٤٧هـــ وكذلك كان في بغداد مكتبة أبي الحسن عـبد العزيـز بن إبراهيم حاجب النعمان جاء في الفهرسـت: ولـم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خـزانته لأنها كانت تحتوي على كل كتاب وديوان بخطوط العلماء المنسوبة.

وازدهـر فـن إنـتاج الكـتب في العالم الإسـلامي، ويعـود الفـضل في ذلك إلى اهتمام الأمـراء والأثـرياء وإقبالهم على اقتنائها، يقول القلقـشندي: إنه كانت ثمة ثلاث مكتبات كبرى في العـالم الإسلامي في بغداد العباسية، وفي القاهرة الفاطمـية، وفي قرطبة الأموية، وقد زار المقدسي فـي حدود سنة ٩٨٥م المكتبة التي أنشأها عضد الدولـة البويهـي فـي مدينة شيراز فقال عنها: وخـزانة الكـتب حجـرة على حدة، عليها وكيل وخـازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فـيها.. والدفاتـر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرس فيه أسامي الكتب.

ومـع ذلـك لم يكن اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات مقتصراً على الأمراء، فهذه كتب التراجم مليـئة بأسـماء فقهاء وأدباء اشتهروا بمكتباتهم الخاصة والكبيرة.

فعلى سبيل المثال ذكر ابن بشكوال في ترجمته للقاضي عبد الرحمن بن فطيس في أواخر القرن الرابع الهجري... أنه جمع الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائما، وكان يجزل العطاء في شراء الكتب، وإذا لم يقدر على ابتياعه نسخهُ ورده لصاحبه، وكان لا يعير كتابا من أصوله، فإذا ألحف أحد عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ثم دفعه إلى المستعير.

وهذا الأديب الكاتب محمد بن يحيى الغافقي من أهل قرطبة في أوائل القرن الخامس الهجري كان جماعا لدفاتر العلم من لدن صباه، منتقيا لكرائمها، بصيرا بخيارها، عارفا بخطوطها، مؤثرا لها على كل لذة حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعد الحكم الخليفة.

والأديب الكاتب أحمد بن عباس، كان كاتباً عند زهير العامري صاحب المرية، قتله صاحب غرناطة باديس بن حبوس ٤٢٧هـ ١٠٣٦م كان جماعاً للكتب فصار عنده ما لم يكن عند ملك.

قال وراقة أنه أحصاها قبل مقتله بسنة فبلغت المجلدات أربعمائة ألف، أما الدفاتر المحزومة فلم يقف على عددها لكثرتها، وفي محنته كان حريصا قبل كل شيء على كتبه، وطلب من قاتله أن يعتني بكتبه.

وبلغ من إكرام أهل العلم للكتاب ما ورد عن الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري أنه كان يمسك الكتاب في سباني الشرب – مناديل من رفيع الكتان – إكراما لها وصيانة.

وورد عن بعضهم أنه كان يقبل الكتاب ويرفعه في مكان عال احتراما لما يحمله من علوم ومعرفة.

مصائب المكتبات

هذا الاعتناء المنقطع النظير بالكتاب أدى إلى الازدهار والحضارة، غير أن هذا الازدهار لم يسلم من نكبات حلت به على مدى العصور، وكان الكتاب قد ناله أكبر نصيب من حرق وإتلاف ونهب، ففي حياة الكتب والمكتبات الكثير من النكسات والمصائب، كالتي حصلت في العصر الحديث، فالكتاب لم ينج من المحرقة ففي القدس كان موجوداً أكثر من ٤٠ مكتبة قام اليهود بنهب أكثر من نصفها خلال احتلالهم لها، وكذلك فعل اليهود عندما اجتاحوا لبنان – ١٩٨٢ – فقد نهبوا جميع محتويات مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية في بيروت وهو المركز الوطني لجمع الوثائق والسجلات العديدة، وقاموا بترحيل المحتويات إلى فلسطين، وهناك تم تفتيشها وتصوير بعضها وبعد سنة من ذلك وإثر مفاوضات بينهم وبين الصليب الأحمر تم إرجاع تسعين طنا من الكتب والوثائق مع ١١٥٠ أسيرا مقابل ثلاث جثث لجنودهم قتلوا أثناء الاجتياح.

وما فعله محتلوا العراق مؤخراً من نهب لآثار ومكتبات العراق يدل على أن العدو أول ما يفعله هو سرقة حضارة وعلم البلد الذي يستعمره، فقد رحلت آثار وكتب العراق ولم يبق منها إلا الشيء القليل.

إنهم يدمرون ثقافة الأمم في عز ازدهار الحضارة وباسم الحضارة، وإن إتلاف الكتب والحكم عليها بالإعدام قديمة في التاريخ، فالفكر هو الإنسان ولكن الانتقام من الفكر كان دوما أشبه بشرب السيوف من الدماء عندما تراق، ولكن الحياة لا تموت وكذلك الكتب تحرق ولكن الفكر لا يموت إنما سيبعث من جديد.

عندما نشطت حركة التأليف والتصنيف في العصر العباسي رأى بعضهم أنه يمكنه الاستغناء بكتاب عن آخر إذا كان في الموضوع نفسه، لذلك يبيع بعض كتبه أو يتلفها، مع أن الجاحظ قال: قد نجد في نسخة ما لا نجده في النسخ الأخرى، لذلك لا ينبغي أن نستهين بشيء أو أن نطرح جانباً أي نص.

ومرور الكتاب بأزمات أدت إلى حرقه أو إتلافه جعلنا نخسر ملايين الكتب مما أبدعته العقول في العصور الغابرة.

فالبعض أحرق كتبه عمداً أو أغرقها أو دفنها أو فرقها أو غسلها من حبرها، ومما يؤسف له أن إحراق الكتب حدث في العالم الإسلامي كما حدث في مناطق أخرى من العالم، وقد أتت هذه الحرائق أساساً على كتب الهرطقة والكتب المفسدة للعقائد الدينية، ولذا اختفت الأصول المخطوطة لتلك المؤلفات، ولم يصلنا منها إلا مؤلفات العلماء الذين كثر اتباعهم مثل ابن عربي، فعلى رغم وجود من أفتى بإباحة إتلاف كتبه وربطها في ذيل كلب مثل كتابه الفصوص إلا أن أتباعه الكثيرون هم السبب في وصول مؤلفاته إلينا، ومثل الكتاب الذي ألفه أبو العلاء المعري الذي قيل أنه انتقد فيه القرآن فأتلفه أمين المكتبة، ولما علم بذلك الوجيه النحوي بعد زمن طويل من الحادثة، اعترض على إتلافه وقال: إن الكتاب إذا كان حقا في مستوى القرآن فيجب ألا يمسه أحد، وإذا كان أقل منه وهذا هو المؤكد فيجب حفظه كشاهد على تفرد القرآن الكريم وتميزه، وكأن الوجيه النحوي يؤكد على عدم إتلاف الكتب أيا كان نوعها، فكلها من إنتاج الفكر الإنساني.




يا قدس..

شعر : وداد طويل عبد النور

السّاحُ جَمْرٌ والدّما تنْساحْ
قَدْ طالَ حُزْنُك والأسى دبَّاحُ..

في كُلِّ قَلْبٍ من جراحك غَصّةٌ
عَبَثاً تُضمِّدُ جُرْحَها الأرْواحُ..

من أينَ آتي بالتجلُّد والنُهى؟
قد داسَ حُرْمَةَ قدسنا السفّاحُ

أينَ الحَمِيَّةُ؟ هَلْ خَبَتْ نيرانُها؟
هلْ ماتَ هذا المَطلَبُ المِلْحاحُ؟؟

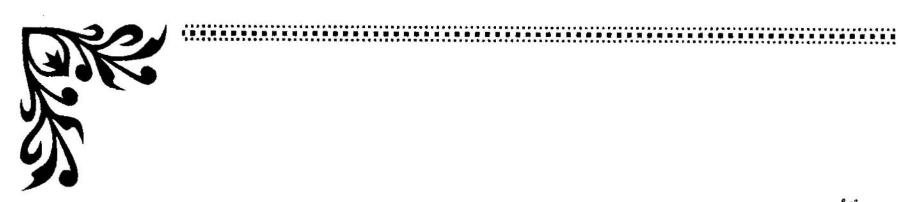
منْذا يُجيرُ القُدْسَ بعْدَ تَصدّعٍ
بِدَمي فَدَيْتُكِ والفِداءُ مُباحُ..

من أينَ أبدأُ والمعابِرُ كُلُّها
طَلْقٌ يُصوَّبُ.. مِدْفَعٌ يَجْتاحُ..

وأنا المُكبَّلُ خَلْفَ جُدْرانِ الضَنى
كيفَ المُكَبَّلُ بالضَنى يَرْتاحُ؟؟

* * *




يــا قُــدْسُ يــا جُــرْحَ الــسَمَاء بِناظِــري
مَــنْ قــالَ لَــيْسَ بِجُــرْحِها جــرّاحُ؟

فــي كُــلِّ يَــوْمٍ لِلــشهادة مَــوْكِبٌ
مُهَــجٌ تَــنُوءُ بِحَمْلِهــا الألْــواحُ

هــي ثــورَةُ الأحــرارِ يــا شَــمْسُ اشــهدي
بِــدَمِ الــبُطولَةِ يُــوقَدُ المِــصْباحُ

ســنُعيدُ للقُــدْسِ الأبــيَّةِ زَهْــوَها
ويُعــيدُ نَــشْرَ شَــراعِهِ المــلاّحُ

سَــنُعيدُ لــلأرضِ الــسليبة ناسَــها
مِــنْ بَعْــدِ مــا أضْــنَتْهُمُ الأتْــراحُ

ســنُعيدُ للأقــصى الجــريحِ سَــلامَهُ
عَــنْ صَــدْرِ مَــريَمَ غَــيْمَةٌ تَنْــزاحُ

ونعــيدُ أســرابَ الحَمــامِ إلــى الحِمــى
وتُقــامُ فــي ســاحاتِنا الأفْــراحُ

ونَــدُقّ أجــراسَ الــسَماء تَهلُّــلاً
وتَــؤوبُ بَعْــدَ فــراقِنا الأرواحُ..

هــي ثَــوْرَةُ الأحــرارِ يــا شــمسَ اشــهدي
بِــدَمِ الــبُطولَةِ يُــوقَدُ المــصْباحُ






عرف عن العرب في الجاهلية براعتهم في إتقان لغة الضاد وتعلقهم بها بشكل لا يماثلهم به أحد من أهل لغات عصرهم، وذلك - في اعتقادي - بفضل عاملين:

الأول: انفراد اللغة العربية - من بين اللغات - بغناها ودقتها.

الثاني: نمط حياتهم، وبيئتهم البدوية الصحراوية، بعيدين فيها عن الصناعة والزراعة، مما أورث فيهم صفاء الذهن وقوة الذاكرة والإقبال على الشعر وما شابهه من أمثال وأقوال. وما المعلقات ومواسم الشعر إلا أمثلة واضحة تدل على ذلك وتشهد لهم على شدة اهتمامهم وتعلقهم بلغتهم.

ويشهد القرآن الكريم: لهم بهذا التعلق أيضاً، كما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت ٤٤].

ويذكر كتاب الله أيضاً بأنهم لم يكونوا على استعداد لتقبل كلام الله لو أنزل على غيرهم من الأمم وبغير لغتهم. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء ١٩٩].

من الطبيعي، بعدما رأيناه الإعجاز القرآني في أساليب تحدياته لهم - والذي كان من خصائصه مخاطبة العقول فيهم - أن تقبلوه استجابة لمضمونه بعد اقتناعهم بعظمته

واستحالة صدوره عن بشرٍ من جهة، ولعدم تمكنهم من الإتيان بمثله - حتى لو كان بعضهم لبعضهم ظهيرا - من جهة ثانية.

ونحن في المهجر، قد تعلمنا لغات الآخرين بسهوله وتذوق، ولكننا مع ذلك وجدناها تفتقر إلى العذوبة والجمال والدقة التي تميزت بها لغتنا العربية. وشاهدناها هنا - في أمريكا الشمالية - أن شكل لغتنا العربية يثير أسئلة وإعجاباً عند مواطني هذه البلاد المتحدرين من أصل غير عربي، عندما يطّلعون على حروفها وطريقة كتابتها وتنقيطها وتشكيلها، فيجدون فيها أمراً شقيقاً يستحق النظر والتأمل والفحص.

كما نجدهم أيضاً يزدادون شوقاً وحباً بمعرفة تاريخ لغتنا بعدما عرفوا أن كتبنا القديمة لم تكن منقوطة، وأن العرب كانوا قادرين على قراءة ما يكتبونه دون صعوبة أو حرج، وأنّ النقاط كانت قد أضيفت في عصر متأخر نسبيا، وأن قواعد اللغة العربية قد وضعت أيضا في وقت لاحق، بعدما أوعز أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب إلى أبي أسود الدؤلي القيام بمهمة وضع علم النحو.

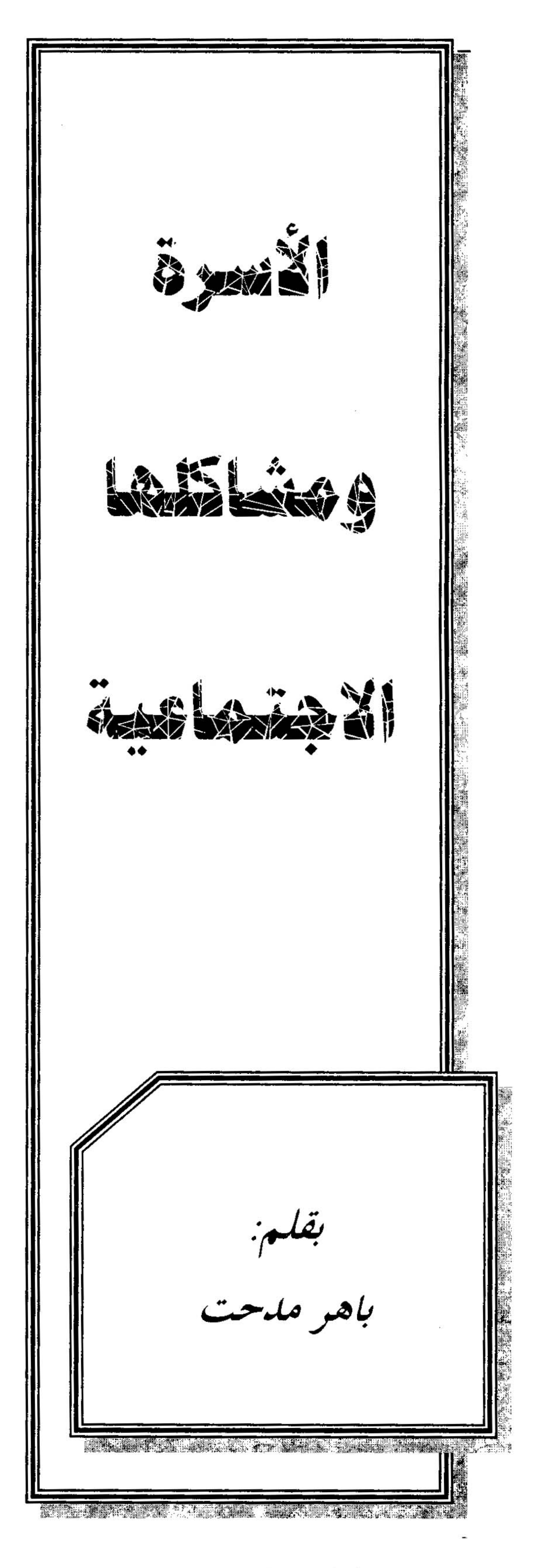
وإليك بعض ما قاله أبو الأسود الدؤلي، مؤسس مدرسة (البصرة النحوية) التي تعتبر من أقدم المدارس النحوية في بلاد العرب، ويضاف إليها مدرسة (الكوفة) ومدرسة (بغداد) النحويتان:

"دخلت على أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً. فقلت فيمَ تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلادكم لحنا، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربيّة. فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربيّة. ثم أتيته بعد أيام. فألقى إلي صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف... الخ"

فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع علم اللغة العربيّة، وأوّل من نقّط القرآن الكريم. ثم توافد الناس بعد ذلك عليه على وتلاميذه من بعده لتعلم اللغة العربيّة...

وجاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، فنقح ما وضعه أبو الأسود وتلاميذه، وألف فيها الكتب ووضع علم العروض للأوزان الشعرية.

وإضافة إلى ضرورة تنقيط الحروف العربية وضبطها، نجد أن الآمر بتأسيس هذه العلوم النحوية، الإمام علي بن أبي طالب كان على درجة من العلم والتمكن والدراية بهذه اللغة الرصينة الجميلة - وذلك بفضل ما تعلمه من مربيه ونبي هذه الأمة، محمد ابن عبد الله، العربيّ الهاشمي ﷺ - استطاع أن يلقي من على المنبر مرتجلاً خطبة لم يذكر فيها حرفاً واحداً من الأحرف المنقوطة، مما حيرّ عقول الأدباء، وأفحم الخطباء والشعراء.



الأسـرة وحدة المجتمع وأهم جماعة فـيه فهـي اسـبق نظام في التاريخ الإنساني وجدت قبل أن يقوم أي نظام اجتماعي آخر أو سياسـي أو دينـي أو اقتصادي كما أنها نواة المجـتمع التي تعكس عليه صفاتها ومميزاتها وتمده بكل ما فيها من محاسن أو مساوئ.

وما في المجتمع من عادات ومشكلات نـشأ معظمهـا مع نشأة الأسرة فتقسيم العمل نشأ في الأسرة بتخصيص الواجبات بين الرجل والمرأة بل إن العمل الذي يختاره الفرد لنفسه يتوقف إلى حد كبير على نوع العمل الذي يقوم بـه أبـوه أو علـى نوع التربية وطرقها التي تتـبعها الأسرة، وكذلك الأمر في الدين فالابن يحتـرم عقيدة والديه يعتنقها، وكذلك الأمر في الملكية والتوريث بل إلى ابعد من ذلك فالرعاية الاجتماعـية وطـرق الخدمـة العامة كرعاية المـسن والمـريض والعاجـز وخدمـة الفرد والجماعـة، كله بدأ من ربوع الأسرة وانتقلت هذه الشؤون بعد ذلك تدريجياً ومع تقدم الزمن وتعقيداتها وتطوراتها للهيئات والدولة.

فضلاً عن ذلك فإن الأسرة هي النظام الطبيعي الذي يكون فيه الفرد نزعاته وميوله، ورغـباته، وعـواطفه، وأحاسيسه ومشاعره فيـتعلم مـن الأسـرة التـضحية والـتعاون والإنسانية والتفاني والتنافس وروح الإخلاص والغيـرة وحب الوطن كما يتعلم فيها إذا فسد جـوها روح التنكر والحقد والحسد والضغينة وحب الذات والميل إلى الانتقام.

والأسرة في جميع تطوراتها من حيث الـشكل والسلطة أو الحجم لا بد لها من توفر شـروط وأركـان خاصـة لقيامها كالمعاشرة الـزوجية وأسـسها على نظام يحدد بمقتضاه الحقوق والواجبات بين الزوجين ووجود محور

قــرابة ينظم النسب في الأسرة فقد كان يعرف الــشخص قديماً بنسبته إلى الأم (نظام الأمومة أي زعامة الأم) أو نسبته إلى الأب (نظام الأب الرئيــسي) مــع ضــرورة قيام نظام اقتصادي معين يحدد الحقوق الاقتصادية من قبل الزوج أو الزوجة كمسؤولية الإنفاق والصداق والنفقة فــي حالة الطلاق وغير ذلك وكل هذا له أثره فــي حــياة المجــتمع وسن القوانين الوضعية العامة التي تساير هذه النظم الأسرية.

والواقــع أن نظام الأسرة في عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وصفاتها وأنظمتها الداخلية وحجمها وسلطتها ومشكلاتها مقياس تستطيع بــه أن تقيس أحوال المجتمع الخاصة والعامة في شتى النواحي.

ولا ننكــر أن المجتمع بدوره يؤثر في حــياة الأســرة ونظامها فنظام زعامة الأم نشأ فــي عهــد كان فيه حق الأم غالباً وكانت فيه القــرابة ممتدة في سلك الأنثى وأكبر سبب في هــذا أن الحياة كانت يومئذ بدائية وكان الرجل صياداً يجوس الغابات والفيافي والقفار ليحصل على قوته وقوت أولاده مهدداً بالقتل وافتراس الوحــوش وعــدم العودة لبيته، أما الأم فكانت مستقرة في منزلها تربي أولادها.

ومــن ثم نشأ من الأسرة نظام الحياة واصــبح الــرجل زارعاً مستقراً أو صانعاً في بيــته أو مصنعه يعود لأولاده آخر النهار كاداً بجهــده لسعادة أولاده وجعلهم أعضاء عاملين فــي مجتمعهم نشأ نظام زعامة الأب في ربوع الأسرة.

حقــاً إن للأسرة مشاكلها الاجتماعية وإن هــذه المــشاكل تنعكس على المجتمع في صــور شــتى. ولذلك نجد أن الاهتمام متزايد ســواءً مــن جانــب الدولة أو رعاية الهيئات الأهلية للإقلال من هذه المشاكل الأسرية فكلما عنــي بحلهــا أو الإقلال منها مع الوقاية من أعراضــها كلما كان لذلك أثره البالغ في حياة المجتمع بأسره.

وموضوع بحث مشاكل الأسرة يتناول أولاً وقــبل كــل شيء تحليل مركز الأسرة في المجتمع كما يعرض التغيرات التي طرأت على وظيفة الأسرة وبنائها في العصور الحديثة.

والواقــع أن هــناك تفاوتاً كبيراً بين مجتمع وآخر في مدى هذه الصفات أو ضعفها.

إن مركــز الأسرة في المجتمع يتميز مهما تباينت صفاتها بخصائص هامة أهمها:

أولا: العمل على بقاء الجنس البشري وهذا من وجهة نظر المجتمع من أهم وظائف الأسرة غير أنه من وجهة نظر الوالدين يشيع فــيها غريــزة حــب النــسل وعاطفة الأبوة والأمــومة لإنــشاء جيل مؤمن بعقيدته شجاع بنفسيته قوي بشخصيته.

ثانــياً: إشباع الغريزة الجنسية إشباعاً منظماً مقدساً.

ثالثاً: إيجاد المسكن اللائق الذي يأوي إلــيه أفــراد الأسرة ويشعرون بداخله بالراحة والطمأنينة مادياً ونفسياً ومعنوياً.

وتــتوقف ســعادة الأســرة على مبلغ تحقيقها لهذه الأغراض مجتمعة وفي الواقع أن المجــتمع الناهض هو الذي يمكن الأسرة من بلــوغ هذه الأهداف دون أن يكون في تحقيق الواحد منها انتقاص للآخر.

وأهــم المــشاكل التي تقوم في حياة الأســرة وتقعدها عن القيام بوظائفها الرئيسية فتسلبها السعادة والهدوء والاستقرار وهي:

أولا: عدم الشعور بالسعادة فكثيراً ما تــسأل الــناس عــن مبلغ شعورهم بالسعادة

الزوجية فيجيبونك أن متاعب الزواج تفوق لذائذه وأن العزوبة على ما فيها من عيوب ومتاعب تفضل الزواج وما يجبه من مسرات...

والحق أن في هذا القول نصيباً من الصحة وإن كان المتزوجون يغالون في التصوير والسبب في ذلك أن الشباب عند إقبالهم على الزواج لا تكون لديهم فكرة واضحة عن ماهيته وأغراضه ويتقدمون إليه في شيء من الاستخفاف والاستهتار إما بدافع شخصي مؤقت أو لتحقيق غرض واحد من أغراض الحياة فالرجل قد يندفع إلى الزواج من فتاة ملكت لبه بمحاسنها الجسمانية فينظر إلى جمالها فقط دون أي اعتبار آخر من الخلق والأخلاق أو الحصول على غنم مادي ويكون بذلك تفاوتاً شاسعاً وعدم تكافؤ لا في الثقافة والحسب والمدركات والوعي فحسب؛ بل لقضاء شهوة مؤقتة فقط والفتاة بدورها قد تقبل على الزواج من شاب استولى على شعورها، يحلو حديثه أو جاهه مظهره أو قد يكون لمجرد الزواج للحصول على من ينفق عليها في سعة وطلباً لحب الظهور والجاه، كل هؤلائك يخطئون التقدير ويسعون إلى الشقاء بخطوات سريعة ويفقدون الحياة الزوجية السعيدة ويملون أركان الأسرة شقاء وانحلالاً هنا يجب أن يفهم كل راغب في الزواج أن الأنانية هي أول أسباب الشقاء، فمن الضروري أن يعلم الشاب والفتاة أن الزواج وتكوين الأسرة شيء جليل وأمر خطير يجب أن تدبر أموره بحسن الاختيار فالزوجة الكاملة هي التي تجذب الزوج إليها بكمال صفاتها وأخلاقها وحسن معاشرتها كما قال الله تعالى ((ولهن مثل الذي عليهن))

كما يجب أن تكون فترة الخطوبة أي ما قبل الزواج فترة مناسبة ليمكن لكل من الخطيبين أن يتفهم الآخر ويعرف مشاعره وأحاسيسه ويتلاءم كل منهما للآخر في حدود إمكانياته وقدراته الخاصة.

وعلى ذلك فمن الضروري على من اعتزم الزواج أن ينظر في فتاة أحلامه إلى تلك الصفات الخلقية التي تبدو آثارها في كل يوم من أيام الحياة الزوجية، تلك الخلال والصفات التي تبقى بل ترقي على مر السنين وكر الأيام بعد أن يذبل الجمال الجثماني ويشتعل الرأس شيباً إذ لا قيمة لجمال الجسم دون جمال الخلق (امرأة فاضلة من يجدها ثمنها يفوق اللآلئ). وبذلك يكون لزاماً على من اعتزم الزواج أن يبحث عن تلك المزايا ويختار صاحبتها حتى يستطيع أن يجد ضالته المنشودة اذ لا سبيل باستقرار الزواج ما لم يكن الاحترام لكمال الأخلاق مقروناً بالحب للجمال الذي يثير في النفس عاطفتي التقدير الشخصي والحب.

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الزواج رحلة طويلة مع زميل مجهول إلى أرض مجهولة، فعندما يركب الزوجان القارب من شاطئ البحر العباب بحر الحياة ويطلقان الشراع للريح تبدأ رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرات وكلما بعد الشاطئ وتوارى عن نظر جمهور المودعين انصرف كل من الزوجين إلى زميله يأنس إليه ويفتح قلبه له معضداً إياه بكل ما حوت النفس من مشاعر وعاطفة، كل يصبو أن تكون الرحلة طويلة وسيدة والبحر هادئاً والرياح رقيقة مؤاتية.

ومن عجب العجاب ونحن في هذا العصر نرى أن الزوجين يقومان بمثل هذه الرحلة الخطيرة في قوارب زاهية البنيان

مزركشة الأركان دون أن يلما بأبسط قواعد الملاحة ظناً منهما أن زرقة البحر وهدوء النسبي ومجال الشمس الساطعة هي كل ما في الرحلة من ألوان.

ترى هل علم هؤلاء أن البحر قد يرغي ويزبد ويهدر وأن الهواء قد يتحول ريحاً عاصفة وأن الشمس قد تتوارى وراء السحب القاتمة وتتركهم في ظلام دامس.

فليس الزواج أثاثاً ونفائس وثريات بل أن العش الهادئ البسيط في جو يسوده الوئام والمحبة والتفاهم هو أقيم من القصور الذي يخيم عليها الشقاء والتعاسة بين الزوجين.

أما المشكلة الثانية فكثرة الأولاد وعدم تحديد النسل، فالأسرة قد تضيق ذرعاً بمواردها القليلة ومع ذلك تنجب أولاداً كثيرة مما يدعو إلى افتقارها وعدم قدرتها على سد حاجاتها والوقوع فريسة للأعداء الثلاثة الفقر، والجهل، والمرض.

إن ظاهرة تعدد الزواج وكثرة الأولاد ظاهرة اجتماعية بين الطبقات الفقيرة فإن الوعي النسلي وتحديده لم يخطر لهم على بال ويرون فيه خروج على الدين وزندقة وقتل أرواح. وهذه المشكلة قد تؤدي إلى تفاقم الخطر على المجتمع فيكثر المتشردون والمتسكعون وتكثر الجرائم بالتالي كما نرى أن الموصومين عقلياً يتزاوجون ويتناسلون في كثرة مذهلة بينما هناك نقصان كبير في حجم الأسرة بين الطبقات المتعلمة والمثقفة والثرية مما ينتج عنه تضخم عدد أفراد الأسرة بين غير قادرين والفقراء والمرضى.

وقد سبق الإسلام إلى ذلك فقد قال النبي العربي ﷺ : ((قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين)).

وقد اهتمت الدول الحديثة بأمر ضبط الانسال خصوصاً في العائلات الموصومة ومرضى العقل والنفس والصرعى والمتعطلين والمجرمين العائدين وذوي العجز الاجتماعي في مختلف صوره بطرق إيجابية وأخرى سلبية بل أصدر بعضها التشريعات اللازمة لتنفيذها.

إن المدينة الحديثة قامت في أكثر الدول على الاشتغال بالصناعة بعد أن كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية وبهذا تغير الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأسرة.

فعندما كان من صالح الأسرة الزراعية أو الرعوية أن تكون كبيرة العدد مرهوبة الجانب قوية العصبية أما الآن وقد أصبحت الصناعة الحرفة السائدة فتشتت أفراد الأسرة في جهات مختلفة وسنت القوانين التي تحرم اشتغال الأطفال لسن معينة بالصناعة فقد تلاشت الدوافع وتضاءلت الأسباب التي كانت تشجع الرجل على الإكثار من الذرية.

والاتجاه الآن في الحياة الحديثة تقضي بالتزام النسل ليتيسر رفع مستوى المعيشة بين الأسرة وإمكان رعاية الأطفال رعاية تامة من مأكل ومشرب وملبس وتعليم وتثقيف، الأمر الذي يتطلب نفقات باهظة وتكاليف مرتفعة.

وتساعد الدول الحديثة هذا الاتجاه الآن إذ أن اهتمام هذه الدول من ناحية السكان هو بالكيف لا بالكم إذ يهمها أن يكون رعاياها في مستوى حياة كريمة ذوي صفات عالية من حيث التعليم والقدرة على الإنتاج وتحمل المسئوليات.

أما المشكلة الثالثة وهي مشكلة عويصة لأنها شديدة الأثر في انحلال الأسرة وتداعيها وتفككها ألا وهي الطلاق.

والواقع أن منشأ هذا الطلاق قد يرجع بنسبة كبيرة إلى أمور منها سوء الاختيار وعدم التوفيق في انتخاب الزوجة الصالحة، ومن أسبابه أيضاً عدم التكافؤ العقلي والذهني وقد يكون منشأه أيضاً الكراهية وعدم التعاطف الجنسي أو الاختلاط مع النساء الفاجرات الذين لا يبغون من حياتهم سوى الدراهم والمظاهر الرشيقة ومنها سهر الرجل خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل فإن ذلك ممل لقلوبهن وسبب لارتيابهن ومنها عدم مؤانسة الأهل بالأحاديث اللطيفة، ومنها حجز المرأة في البيت ضراراً وضياع حقها المشروع ومنعها من التصرف في أموالها وزيارة أهلها وأقاربها فإن النساء إذا شدد في مضايقتهن خشي انفجارهن وعندها تتشتت الأسرة المتكاتفة وتتفرق عراها المتواصلة.

وقد اختلفت وجهات نظر الدول وقوانينها نحو الطلاق، ففي ايطاليا وايرلندا وسائر العالم الكاثوليكي يحرم الطلاق بتاتاً ولو أنه في بعض الظروف يحكمون ببطلان الزواج إذا اتضح أن أحد الشريكين قد خدع الآخر فإن تكون الفتاة غير عذراء أو يكون الزوج فاقداً للحاسة الجنسية وفي بعض الأحيان تبيح قوانينهم الدينية الانفصال الجسماني، فتبقى العلاقة الزوجية قائمة ولكن مع انفصال الزوجين عن بعضهما.

أما الإسلام فقد أباح الطلاق بشروط حفظ فيها حق الطرفين وشدد على المسلم أن يستعمل هذا اللفظ ألعوبة يلهو بها في كل وقت بل أعلمه أن الطلاق لا يكون إلا إذا أصبحت الحياة بين الزوجين ناراً لا يطفأ لهيبها وشرط له إحضار حكمين للفصل بينهما بالعدل دون تحيز لإحداهما، ولئن انتشر الطلاق في هذه الأيام فإنما هو من جراء الجهل بأحكامه وميول بعض الأزواج إلى أهوائها المتتابعة.

أما المشكلة الرابعة فهي مركز المرأة الحالي الاقتصادي في المجتمع فإذا خرجت المرأة للعمل وتركت بيتها وأطفالها بدون عناية ولا تربية جهلت في الأسرة انحطاطاً في العيش والكرامة، وكثيراً ما ينشأ عن هذا مآسي كثيرة لا تكون فيها المرأة قادرة على أن تكون ربة بيت ولا مربية لأطفالها ، وغير قادرة على ملازمة عملها، وهناك تحدث المشكلة ويقترب شبح الخلاف في الأسرة.

وكثيراً ما تتضارب سلطة الرجل على زوجته وسلطان رب العمل على موظفته إذ كثيراً ما يحدث أن تتأخر الزوجة في العمل بأمر صاحب العمل للحاجة إليها، والزوج يطلب منها أن تعود في مواعيدها، فإلى أيهما تستمع وأيهما تطيع، الزوج أم رب العمل فللإبقاء على عملها بطبيعة الحال تطيع صاحب العمل وتخالف أمر زوجها، وهنا قد يتأثر الزوج بكبريائه في مثل هذه المشكلة ويقوم الخلاف بينهما.

وكثيراً ما يكون الخلاف في أمر دخلها، هل هو ملك خاص لها أم شركة بينهما للإنفاق على الأسرة..؟؟

ومن هنا تنشأ الخلافات ويتفاقم أمرها وقد تنتهي إلى الطلاق والواجب في مثل هذه الأمور كلها أن يفهم كلا من الزوج والزوجة أن الحياة العائلية ما هي إلا شركة تعاونية بينهما يتقاسمان فيها السراء والضراء ويتحمل كل منهما نصيبه من الجهد والرعاية في سبيل إسعاد الأسرة وقيامها على أسس تعاونية سليمة ليكتمل لها ظروف السعادة والهناء.

إن المشاكل الاجتماعية للأسرة في طريقها الآن في جميع العالم إلى الإقلال والانخفاض وذلك بفضل تقارب وجهات النظر ونشر الوعي بين الشباب عن أهمية الروابط الزوجية وقدسياتها وهذا الاهتمام لنشر الوعي الاجتماعي بدور الأسرة ونظامها وحل مشاكلها لا تقوم به الدولة وحدها إنما تسهم فيه الجماعات والهيئات والمؤسسات المختلفة.

وفي عهد ثورتنا الناهضة نرى اهتماماً كبيراً ورعاية شاملة من جانب الدولة بشؤون الأسرة والعمل على رفع مستواها مادياً وأدبياً بل أن دستور الجمهورية العربية السورية هدف إلى حماية الأسرة ووقايتها بنصوص صريحة في مواده، كما تضمن تشريعات بحماية المرأة الموظفة والعمل على تيسير قيامها بواجباتها الأسرية.

وقد عملت الجمهورية العربية السورية على نشر التعليم وجعله إجبارياً في المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الاعدادية (بالمجان) ووسعت فيه ويسرته في المراحل الأخرى حتى المرحلة الجامعية وأنشأت المستشفيات والمؤسسات الاجتماعية والوحدات الاجتماعية لتعمل بنصيب وافر على حل مشاكل الأسرة الاجتماعية اقتصادياً واجتماعياً بصرف إعانات ومعاشات اجتماعية للأسر الفقيرة ومعالجة المرضى والعاطل والعاجز عن العمل ومساعدة الحالات الطارئة كالوفاة والطلاق وغيرها.

كما أسهمت المؤسسات الأهلية التي انتشرت في أرجاء البلاد لحل مشاكل الأسرة وتقدمت في خدماتها تقدماً ملحوظاً يسر على الأسرة الفقيرة والمحتاجة والمحرومة نفسياً وصحياً واقتصادياً أن تحيا حياة كريمة في ظل وراف من الرعاية الاجتماعية.

كما انتشرت معاهد الخدمة ودراسة الاجتماع في الكليات والجامعات مما ساعد على تخريج أخصائيين على حل مشاكلها على أسس علمية فنية صحيحة بل وعلى العمل على تنظيم المجتمع وتنسيق موارده بالنسبة لحاجاته.

كل ذلك أدى بلا شك ويؤدي وسيؤدي حتماً إلى حل مشاكل الأسرة والتخفيف من أعبائها والتزاماتها بحيث تحيا الأسرة في رغد من العيش وفي رفاهية دون تعسر أو ضيق.

ولم تنس الدولة الأطفال الذين بلا أسر، فلقد أنشأت الملاجئ والمؤسسات الاجتماعية للذين قست عليهم الطبيعة فحرمتهم من أسرهم إما بالوفاة أو الطلاق أو ما شابه ذلك.

كما أنشأت الدولة مكاتب الزواج لمن يرغب لبحث حاله والكشف عليه طبياً لمنع انتشار الأمراض في الأسر ووقايتها من العدوى. وما ينتج من مشاكل كبيرة.

ومن هنا نرى أن الجهود التي تبذل في سبيل خدمة الفرد وخدمة الجماعة في نطاق الأسرة سواء من الدولة أو من الهيئات والمؤسسات الأهلية، إنما ستكفل بلا شك إلى التقليل من مشاكل الأسرة والعمل على إسعادها ورفاهيتها لتشق طريقها في تأدية رسالتها قدماً وإلى الأمام.

ونشكر الله على ما أعطانا لما فيه خير للصالح العام وخير الأسرة ودبر لها من أمرها رشدا.

ونسأل المولى أن يسدد خطى جمهوريتنا لما فيه إسعاد مجتمعنا السياسي والاجتماعي والثقافي.





لأنك حبيبي..

شعر: محمد عبد الحكيم دبدوب

حبيبـــي فـــي جـــنونٍ جـــئتُ أســـألْ

هـــل الحـــبّ الـــذي نحـــوي تـــبدّلْ

لأنـــك يـــا حبيبـــي الـــرّوحُ تـــسري

بأوصـــالي، فمـــاذا ســـوف تفعـــلْ؟

لأنّـــك يـــا حبيبـــي مَـــنْ يُـــسوّي

لقلبـــي دربَـــهُ ليـــصيرَ أســـهلْ

وإنّـــك يـــا حبيبـــي حـــينَ تأتـــي

إلـــيّ أصـــيرُ بـــينَ الـــنّاسِ أجمـــلْ

وإنّـــك يـــا حبيبـــي حـــين تـــرنو

إلـــى عينـــيْ، يـــصيرُ الـــرّمشُ أكحَـــلْ

حبيبـــي كـــم شـــكوتُ هـــواكَ ردحـــاً

وقـــبلكَ كـــنتُ ظُلـــمَ الحـــبّ أجهـــلْ







حبيبـــــي كـــم كتـــبْتُ الآهَ شـــوقاً

إلـــى عينـــيكَ، يـــا طفلـــي المُـــدلّلْ

حبيبـــي كـــم شـــربتُ المُـــرّ صـــبراً

وعــــنكَ بحـــرقةٍ كـــم كـــنتُ أســـألْ

وجـــئتَ إلـــيّ يُنـــبوعاً غزيـــراً

مـــن الآمـــالِ، هـــذا القلـــب بلّـــلْ!!

وجـــئتَ إلـــيّ أزهـــاراً تـــرامتْ

علـــى مـــرْجٍ بلقـــياها تكلّـــلْ

وجـــئتَ إلـــيّ نـــوراً لـــيسَ يخـــبو

أتـــيتَ إلـــيّ كـــالحلمِ المـــؤجّلْ

أنـــا أهـــواكَ فـــارحمْ لَهْـــفَ قلـــبٍ

بـــلا نجـــواكَ فـــي قهـــرٍ تعلّـــلْ

أنـــا أهـــواك فاســـمعْ صـــوت حُبّـــي

فهـــلْ أنـــت الـــذي بالحـــبّ يـــبخلْ؟؟

أنـــا أهـــواك، أنـــصِفْ أمنياتـــي

وإنّـــي مـــن فـــضولي صـــرْتُ أخجـــلْ

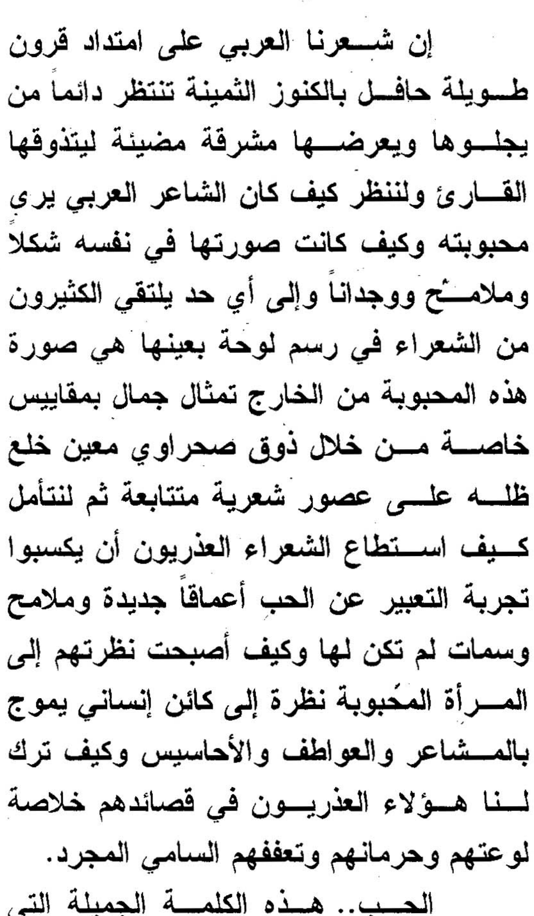
أحـــبّكَ، أعطنـــي قيـــراط حـــبٍّ

وخُـــذْ قلبـــي الـــذي تُدمـــيه.. وارحـــلْ




التمايز في فن الغزل عند الشعراء العرب

بقلم:
فريد محمود كندو



إن شعرنا العربي على امتداد قرون طويلة حافل بالكنوز الثمينة تنتظر دائماً من يجلوها ويعرضها مشرقة مضيئة ليتذوقها القارئ ولننظر كيف كان الشاعر العربي يرى محبوبته وكيف كانت صورتها في نفسه شكلاً وملامح ووجداناً وإلى أي حد يلتقي الكثيرون من الشعراء في رسم لوحة بعينها هي صورة هذه المحبوبة من الخارج تمثال جمال بمقاييس خاصة من خلال ذوق صحراوي معين خلع ظله على عصور شعرية متتابعة ثم لنتأمل كيف استطاع الشعراء العذريون أن يكسبوا تجربة التعبير عن الحب أعماقاً جديدة وملامح وسمات لم تكن لها وكيف أصبحت نظرتهم إلى المرأة المَحبوبة نظرة إلى كائن إنساني يموج بالمشاعر والعواطف والأحاسيس وكيف ترك لنا هؤلاء العذريون في قصائدهم خلاصة لوعتهم وحرمانهم وتعففهم السامي المجرد.

الحب.. هذه الكلمة الجميلة التي تطرب لها القلوب هذه العلاقة السامية والتي اشتعلت من أجلها حروب كثيرة واخضرت لها ربوع، لها عند العرب أسماء كثيرة، وكما قيل كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى.

وقد ذكر ابن قيم الجوزية في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) حوالي خمسين اسماً منها (الهوى – العلاقة – الكلف – الشغف – الجوى – التيتم – التدله – الهيام.. إلخ) ومع أن الأسماء كثيرة ولكن أهم درجة للحب وبلا منازع (العشق) وهو إفراط في الحب وتحطيم للعاطفة حيث أنه أمرّ أنواع الحب.

قال الشاعر عباس بن الأحنف متغزلا بمحبوبته (فوز):

إذا جاءني منها الكتابُ بعتْبها
خلوتُ بنفسي حيثُ كنتُ من الأرض
وأبكي لنفسي رحمةً من عتابها
ويبكي من الهجران بعضي على بعضي
وإني لأخشاها مسيئاً ومحسناً
وأقضي على نفسي لها بالذي تقضي
فحتى متى روحُ الرِضا لا يصيبني
وحتى متى أيامُ سخْطك لا تمضي

وقال ابن سهل:

ما أرى الخال فوق خديك ليلاً على فَلَق
إنما كان كوكباً قابلَ الشمس فاحترقْ

وقال ابن زيدون في محبوبته (ولادة):

أُسلبُ من وصلكِ ما كسيتُ
واعزَلُ عن رضاكِ وقد وليتُ
فديتك ليس لي قلب فأسلو
ولا نفس فآنفَ إن جُفيتُ
فإن يكن الهوى داءً مميتاً
لمن يهوى فإني مستميتُ

وقال عبد الله بن المعتز:

أيها العازلون لا تعزلوني
وانظروا حسن وجهها تعذروني
وانظروا هل ترون أحسن منها
إن رأيتم شبيهها فاعذلوني

بي جنونُ الهوى وما بي جنونٌ
وجنونُ الهوى جنونُ الجنون

وقال ابن صمادح:

وحقاً أنها جنون
تسل من لحظها المنونْ
لا صبر عنها ولا عليها
الموت من دونها يهونُ
لأركبنّ الهوى إليها
يكون في ذلك ما يكونْ

وقال حبيب بن الأحمد الأندلسي:

ودعتني بزفرة واعتناقي
ثم نادت متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها
بين تملك الجيوب والأطواقِ
يا سقيمة الجنون من غير سقمٍ
بين عينيك مصرع العشاقِ

وقال الصاحب بن عباد:

لقد قلتُ لمَّا أتوا بالطبيب
وصادفني في أمري اللهيبِ
وداوى فلم أنتفع بالدواء
دعوني فإن طبيبي حبيبي
ولستُ أريد طبيب الجسومِ
ولكن أريد طبيب القلوبِ

وقال الأصمعي:

أيـــا معـــشر العـــشاق خبـــروا
إذا حـلَّ عـشقٌ بالفتـى كيف يصنعُ
يـداوي هـواه ثـم يكـتم أمـره
يخـشع فـي كـل الأمـور ويخضعُ
فكـيف يـداري والهـوى قاتـلُ الفتى
وفـي كـل يـومٍ روحـه تـتقطع
إذا لـم يجـد صـبراً بِكـتمانِ سـره
فلـيس لـه سـوى المـوت أنفـع

وقـال الـشاعر أبـو جعفـر عثمان المصحفي متغزلاً:

لعينـيكِ فـي قلبـي عـيونُ
وبـين ضـلوعي في الشجون فنونُ
لأن كـنت مغـرماً فـي الهـوى
فحـبكِ فـي الفـؤاد مـصونُ

وتغنـى مطـرب الملـوك محمد عبد الوهاب فأنشد:

أغـار مـن قلبـي إذا هـامَ لـرؤياكِ
وأنـتِ المنـى والروح فكيف أنساك
إنـي بـشوق متـى الأيـام تجمعـنا
وأُسـعدُ فـؤادي بقـربٍ من محيّاك
والطيـر يـشدو بهمـس حين يسمعنا
وجـاور الدمـع مـن عينـي عيناكِ
أهـيمُ فـيكِ ونـار الـبعد تحرقنـي
وقلبـي الخفـاقُ بالأشـواق نـاداك

سعاد، للدكتور مانع سعيد العتيبي

يحـتلُ حُـبكِ يـا سـعاد ضـميري
ويحـلُ فـي عقلـي وفـي تفكيري
لـولا هـواكِ لمـا صعدتُ إلى الذرى
ولمَّـا نـصبت على السحاب سريري
أدري سـعاد بـأن عـدلكِ دائـمٌ
وبـأن ظُلـمَ الحُـبِّ غيـرُ خطيـرِ
مُـدي يـديك التـي إنـي خائـفٌ
أنْ تفلتـي مـن اضـلعي وتطيـري

وقـال عـبد الله يوركي حلاق شاعر حلب وصاحب مجلة الضاد:

أغـار علـيك مـن سـرب العـذارى
ومـن قُـبلِ النـسائمِ فاطمئنـي
فأنـت ملـيكة الإخـلاص عـندي
وليـستْ غيرتـي مـن سـوء ظني
ولكـن مـن يُحـبكِ مـثلَ حُبـي
يغـارُ علـيكَ مـن إنـسٍ وجنـي

ومـع ذلك إن القلب لا يشيخ ولكنه ينبض في كل مرحلة من مراحل العمر بما يلائمهـا مـن العواطـف والروح أيضاً لا تعتريها الشيخوخة إلاَّ بإرادة صاحبها...




النَّهْرُ سَلَّ حُسَامَا..

شعر: لابن مهلهل

النَّهْـرُ سَـلَّ حُسَـامَا عَلَـى قُـدُود الغُصُـون

وللنَّـــسيمِ مجـــالُ

والـــروضُ فـــيه اخْتِـــيَالُ

مُـــدَّتْ علـــيه ظِـــلالُ

والزَّهْـرُ شَـقَّ كِمَـامَا وَجْـداً بتِـلكَ اللُّحُـونِ

أمـــا تـــرى الطَّيْـــرَ صَاحَا

والـصُّبْحَ فـــي الأُفْقِ لاحَا

والزَّهْـــر فـي الروْض فَاحَا

والبرق ســاق الغَمَامــا تَبْكــي بدمــعٍ هَتُــون